

العدد الأول

العدد الثاني

الاشتراكات

١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
والطوب
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف إليها أجرة
البريد خارج القطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المُسْلِمُونَ

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
ستة عشر أعداد

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سيد رمضان

الإدارة:

٣٢ شارع النيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

يناير سنة ١٩٥٢

(الطبعة الثانية)

ربيع الثاني سنة ١٣٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
وبعد فقد أصدرنا العدد الأول من « المسلمون » وسط طوفان من المشاغل العامة
والخاصة التي يعرفها أصدقاؤنا القريبون . . . وقد كنت أقدر أن طغيان تلك المشاغل
على الوقت والعقل والنفس سيقصر بي عن إخراجي على النحو الذي يرضى رغبات
حضرات القراء في غزارة المادة وسمو المعنى وأناقاة الطبع ، ولكن ما كاد العدد يصل
إلى حضراتهم حتى تلقينا سيلا من رسائلهم وبرقياتهم وكثيراً من زوارهم ، معربين عن
ارتياحهم وثنائهم وتقديرهم لما لمسوا من جهود ، والحمد لله رب العالمين .

وإن من سبل التجويد والإحسان أن نضاعف الجهد والعناية ، وأن ننتفع بالتجربة ،
وأن نتحرى السير نحو الكمال بخطوات ثابتة مطردة ، وأن نمحس ملاحظات حضرات
القراء ومقترحاتهم للاهتمام بما فيها من توجيه حسن ، وهو ما عقدنا عليه العزم إن
شاء الله ، وأرجو أن يلمس قراؤنا الأعزاء آثاره في هذا العدد والأعداد القادمة ،
والله المستعان .

العدد الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العدد الأول

الاشتراكات

١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
واللطوب
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف إليها أجرة
البريد خارج القطر

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة:

٣٢ شارع النيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة

تصدر مع غرة كل شهر عربي
ستة عشر أعداد

يناير سنة ١٩٥٢

(الطبعة الثانية)

ربيع الثاني سنة ١٣٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
وبعد فقد أصدرنا العدد الأول من « المسلمون » وسط طوفان من المشاغل العامة
والخاصة التي يعرفها أصدقاؤنا القريبون . . . وقد كنت أقدر أن طغيان تلك المشاغل
على الوقت والعقل والنفس سيقصر بي عن إخراجه على النحو الذي يرضى رغبات
حضرته القراء في غزارة المادة وسمو المعنى وأناقة الطبع ، ولكن ما كاد العدد يصل
إلى حضراتهم حتى تلقينا سيلا من رسائلهم وبرقياتهم وكثيراً من زوارهم ، معربين عن
ارتياحهم وثنائهم وتقديرهم لما لمسوا من جهود ، والحمد لله رب العالمين .

وإن من سبل التجويد والإحسان أن نضاعف الجهد والعناية ، وأن ننتفع بالتجربة ،
وأن نتحرى السير نحو السكالك بخطوات ثابتة مطردة ، وأن نمحص ملاحظات حضرات
القراء ومقترحاتهم للاهتمام بما فيها من توجيه حسن ، وهو ما عقدنا عليه العزم إن
شاء الله ، وأرجو أن يلمس قراؤنا الأعزاء آثاره في هذا العدد والأعداد القادمة ،
والله المستعان .

وقد سأل بعض حضرات القراء : أين باب التفسير ؟

وهو في ذلك متأثر بما اعتادت الصحف والمجلات الدينية أن تترصمه من أفراد باب خاص لتفسير القرآن الكريم . . . والواقع أننا استشرنا الكثير من أهل الفقه والدراية فكان نظرم أن مفسر « المسلمون » لن يأتي في تفسيره بشيء جديد يخرج عما جاءت به كتب التفسير القديمة والحديثة وما أكثرها بين أيدي الناس ؛ ورأوا — ورأينا معهم — أن حاجة الناس إلى علاج مشاكل العصر على ضوء القرآن الكريم أشد من حاجتهم إلى تكرار ما قاله المفسرون من قبل .

وقد عرض القرآن لهذه المشاكل أو المسائل في شتى سورته الكريمة بحيث يستطيع الباحث أن يجد في الآيات التي وردت في موضوع معين مادة قيمة يواجه بها حاجة المجتمع إلى المعرفة والهداية والمنهاج الواضح السديد ، وذلك بلا شك من أفضل أبواب التفسير . ولعل القاريء يلحس شيئاً من ذلك في باب « قصص القرآن » ، وفي مقال : « من دستور تكافلنا الاجتماعي » وفي غيرها من أبواب المجلة . . . على أننا سنعنى — إن شاء الله — فيما نستقبل من الأيام بإبراز هذا اللون والإكثار منه على نحو يحقق المقصود . .

وفي النية إيراد قصة جهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم في نمط من التفسير والسيرة نبذوها منذ نزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم بيا كورة القرآن الكريم : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » ، ونغضى مع الزمن فنفسر ما تتابع نزوله من الوحي على ضوء ما كان يصطرع في البيئة من عوامل عقلية ونفسية واجتماعية ، ملتزمين النسق التاريخي للحوادث ونزول الوحي . وفي هذا اللون من البحث — عدا إفادة التاريخ والتفسير القوى الواضح — عرض لصور جهاده صلى الله عليه وسلم في مراحل المختلفة ؛ فلعل مجاهدي هذا العصر ودعاته يجدون فيها قوة لإيمانهم ، ونوراً لبصائرهم ، ونهضة لمزائهم ، ومنهاجاً قوياً لتثبيت العقائد وإعداد الرجال ومجاهدة الأعداء وبناء المجتمع على أثبت الدعائم وأقوى الأسس .

وقد كتب إلينا الكثيرون يطلبون أن نعرض بعض سير الرجال الذين عرفوا بمجاهدة النفس ومراقبة الله والخوف منه والإقبال على طاعته وحسن عبادته ؛ فهؤلاء هم الذين تمثلوا تعاليم الإسلام فسرى نورها في قلوبهم وعقولهم ، فمثلوها للناس وجهة صادقة ، وسيرة طيبة ، ومعاملة حسنة ، وقدوة تنهض إلى معالي الأمور . . . وإننا — ونحن في مستهل نهضة إسلامية شاملة — نحتاج إلى تربية النفوس ، وتهذيب الضمائر ،

وإصلاح أخلاق الرجال والسمو بهمهم وأعمالهم إلى ابتغاء رضوان الله والتماس المنازل وحسن الذكر عنده وحده سبحانه ؛ فإنه لم يسقط من منازل مجدنا العزيز إلا سقوط الهمم إلى مستوى الأهواء الشخصية والتنافس الوضيع على شهوات الجاه وزينة الحياة الدنيا .

وهو كلام حق ، فإن حاجة النهضة إلى تزكية النفوس بالقدوة الحسنة لا تقل عن حاجتها إلى تمحيص حقائق الإسلام وعرض مناهج الاجتماعية المختلفة . . . وقد استجبنا لهذه الرغبة الحبيبة ، وعرضنا في هذا العدد سيرة رجل لم يعرف في التاريخ بما ولى من مناصب ، أو كسب من معارك الغزو ، أو اختط من مذاهب العلم ، أو حاز من المال والعقار ، وإنما عرف في الصالحين والمجاهدين بإيمانه بالله والدار الآخرة إيماناً نصب له في ذهنه معالم القيامة وما بعدها حية نابضة ، فنبض بها قلبه وجاش بها حسه ، فعاد على نفسه بالمحاسبة والمراقبة والتهديب ، وعاش في الناس يهز وجدانهم بما قام في ذهنه وعصبيه من هيئة الجنة والنار والقيامة . . . ونحن نرجو بهذا أن يذكر المسلمون آخرتهم ؛ فإن الإيمان بها أوشك أن يمحي من أذهانهم وقلوبهم ، إذ ضعف فيهم الوازع وانحلت العزيمة وشاعت الفرقة والتنافس على العرض الزائل . . . نريد ذلك الإيمان الصادق الحار الذي يرى الناس عرش ربهم بارزاً ، فيقيمهم في قبضة قهره ، ويملي عليهم مناهج المعيشة العامة والخاصة التي تتسق وإياه .

والله نسأل أن يكتب لنا صدق معرفته ، وأن يوفقنا إلى خير ما يحب من خدمة كتابه وتأيد كلمته ، وأن يهدينا جميعاً سواء السبيل . . آمين .

سعيد رمضان

قَصَصُ الْفِرَّانِ

آدم عليه السلام

عرض وتحليل بقلم الأستاذ البهي الخولي

(٢)

الإنسان والشیطان :

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حمأٍ مسنون ، والجآن خلقناه من قبل من نار السموم ^(١) » .

لا نريد بالتكوين هنا تركيب الجسم وتصويره من لحم ودم وعظام وجوارح وتقاسيم ، ولكننا نعني الخطوط الجامعة التي فطر الله عليها هذا الكائن الممتاز في صفات خلقه ، ومشاعره وإدراكه ، وعقله المعجز الخبير ... نعني ذلك التقويم الروحي المادي الذي سوى عليه الإنسان ، فكان كما أخبر الله سبحانه في قسمه : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » . أو بعبارة أقرب إلى فهمنا الحاضر ، نريد معنى « التصميم » الذي يذكر في لغة المهندسين عندنا ويراد به الخطوط التي يقام عليها بناء بيت أو مصنع أو نحوهما ليؤدي الغرض منه على أحسن حال .

ولقد كان الإنسان في علم الله القديم — قبل أن يخلق — معنى جامعاً للأوصاف التي يتألف منها كيانه المادي والروحي ، أو كان « تصميمًا » — والله المثل الأعلى — ينتظر الوقت الذي يظهره الله فيه إلى حيز الحس والمشاهدة .

ولقد خلقه الله من طين ، ونفخ فيه من روحه ، فإذا هو بشر سوى يمثل الأوصاف التي سبقت له في علمه سبحانه .

ولقد قلنا في المقال السابق : إن طينة الإنسان إذا أمدته بشيء فإنما تمده بخصائص الصلصال والحمأ المسنون ؛ أما صفات القوة والخير والنور فليس في طبيعتها أن تمده بشيء منها ، فهي في ذلك كالأرض الميتة . . فإذا رأى على الإنسان أثر من هذه الصفات فهو من خصائص السر الذي نفخه الله فيه من روحه .

فالإنسان بإزاء الحق والخير ناحيتان : إحداهما سلبية ميتة وهى طبيعة الطين ،
والأخرى إيجابية حية وهى طبيعة الروح ، فإذا أمدت الأولى بمدد من الأخرى حيث
وربت وأثمرت ما شاء الله من فضائل : « كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآنت أكلها
ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير » .

هذا هو « تصميم » الإنسان أو التقويم الإلهى الذى سويت عليه فطرته ؛ ولكن
هل فرغنا من كل ما يتعلق « بالتكوين » أو يتصل به ؟

إننا لنعوذ بمقام الله نسأله تعظيم شأنه حتى لا نكون ممن يبتذلون له حرمة ..
أقول ذلك حين خطر لى أن أستعين على تقريب ما أنا بصده ، بضرب مثل : فإن
المهندس الذى يضع « تصميم » قصر من القصور ، لا يقتصر فى تقدير التصميم على ما يجب
أن يكون فى هذا القصر من حجر النوم ، والطعام والضيافة ، ومرافق المطبخ ودورات
المياه ونحوها ، بل يدخل فى حسابه حتماً صلة هذا القصر بما يجاوره من طرق وشوارع
وجيران ، ومناظر طبيعية ، وإقبال الرياح وإدبارها ، ومساقط النور ، ومداخل
الشمس ونحو ذلك .

أقول — والله المثل الأعلى — : إن الإنسان لم يخلق ليعيش فى هذه الأرض وحده ،
بل ليعيش معه فيها ويجاوره فى أنحائها ما شاء الله من جن وشياطين وغيرها من كائنات
غير منظورة ... ولو قدر له أن يعيش محجوباً عن هؤلاء لا يتصلون به ولا يتصل بهم ،
لكان شأنه شأن البهيمة المطموسة التى لا يتصور أن تتصل فى حياتها الوجدانية بـلائكة
أو شياطين ، ولصمم تصميم القصر المصمت : لا نوافذ له ولا مداخل ولا أبواب ..
ولكن الله سبحانه قدر له أن يتصل بهذه الكائنات الغيبية ، وأن يطل عليها من خلال
حيوانيته أو منافذ وجوده المادى ، فقدر لطبعه تلك المرونة التى تجعله واسع الآفاق
يتصل بظواهر هذا الوجود وخوافيه ، ويتفاعل مع مادة هذه الأرض وما خفى من
مردتها وشياطينها ... كان ذلك كله تقدير الله للإنسان ، ففطره على ما قدر له ، وأهبطه
إلى الأرض أصاح ما يكون للاتصال بكل ما فيها : « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو » ،
ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون» (١)
ولما كنا بصدد ما رسمت لنا القصة من صفات الإنسان ، فإن الله سبحانه رسم لنا
كذلك صفات ذلك الشيطان الذى قدر لنا أن نهبط معه إلى هذه الأرض ، فقال سبحانه :
« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجآن خلقناه من قبل من نار

السموم . فأنت ترى أن الله سبحانه قرن في هاتين الآيتين بين الحما المسنون الذي خلق منه الإنسان وبين نار السموم التي خلق منها الشيطان .

ولا شك أن هذا الاقتران ليس محض مصادفة ، ولا هو لتقرير حكم أو إفادة خبر ، بل هو تقرير للجوهر الذي خلق منه ذلك العدو ، لنستقبل أمرنا معه على هدى وبصيرة .

ولقد سبقت الإشارة — في المقال السابق — إلى بعض خصائص الصلصال والحما المسنون ... أما نار السموم التي خلقت منها الشيطان ، فلم نجد فيها قال المفسرون عنها ما يشفي غلة من يريد معرفة حقيقتها ؛ فالسموم عندهم هي الريح الحارة بالنهار ، وقيل بالليل ، وقيل الحرور والسموم بالليل والنهار إلى آخر ما هنالك مما لا طائل وراءه .

والحق إن الجن كائنات لا تدركها الأبصار ، ولا تقع في مستوى حواسنا العادية : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ^(١) » . ومن التكلف الذي لا يفضى إلى شيء أن نحاول معرفة كنه النار التي خلقت منها تلك الكائنات ، فهي قطعاً ليست كالنار التي نعرف ، وليست كأي نار يمكن تصور هيئتها ، فتلك أمور سمعية يتوقف الإيمان بها على الخبر الصادق وحده الذي نزل به الوحي من عند الله ، أو صح عن الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم .

والذي يهمنا من هذه النار ليس هو صورتها ، ولا العناصر التي تؤلفها ، بل خصائصها وأسرار صفاتها ... ولقد أوردنا في المقال السابق : أن الرسول عليه السلام حين تكلم عن خلق الإنسان من تراب ، صرف أبصارنا عن هيئة الطين وصورته إلى ما يمكن أن يستمد من خصائصه ومعاني صفاته ؛ فنحن على هذا لسنا بصدد البحث في تركيب الصور والأشكال ، بل بصدد الصفات التي يمكن أن يستكن سرها وراء ذلك ! وعلى هذا فإذا يمكن أن نعرفه من صفات نار السموم ؟

لقد قرر القرآن الكريم من هذه الصفات الكبر ، وهو وصف يرى في نزوع النار إلى الاستطالة والاستعلاء وإرادة الارتفاع . وإنا لنقرأ في القصة الكريمة أن الشيطان حضره ذلك الطبع حين أمر بالسجود لآدم فأبى أن يكون مع الساجدين ، فطرده الله من رحمته : « قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ^(٢) » .

(١) الأعراف : ٢٧ .

(٢) الأعراف : ١٢ .

ولقد يدق على كثير من الناس معنى الكبر فيذهبون في فهمه مذاهب شق ، فأراحنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ محض لنا حقيقته وأعلنها سوية واضحة : « الكبر بطل الحق ، وغمط الناس ^(١) » .

وبطل الحق رده وعدم الإذعان له .

وغمط الناس ازدرأؤهم وانتفاص أقدارهم .

فالكبر على هذا هو الأنانية الغليظة التي تريد أن تكون إلهاً في الأرض لا يخضع لحق ، وطاغية في الناس يضيق أن يؤثر أحدهم بكرامة أو خير ، إذ يرى نفسه أولى بكل ذلك .

وكلنا شعبى الكبر بارزة في قصة امتناع إبليس من السجود لآدم : « قال ما منعك أن تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين » . فقد توجه أمر الله إليه بالسجود — وأمره سبحانه حق — ولكنه رد هذا الحق ورفض الإذعان له مُعلنًا فضله على آدم واحتقاره لشأنه : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » .

ولسنا نجد صفة تسود بها الفوضى ، ويضطرب لها المجتمع ، وتنقطع معها أواصر التواد بين الناس كصفة الكبر ، تلك التي تطلق صاحبها فتنة في الأرض لا يخضع لنظام ولا يقر بحق من الحقوق إلا أن يوافق هواه أو يجارى مصلحته : « وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ^(٢) » .

ومن صفات النار التي يمكن إسنادها إلى الشيطان كذلك ، ما ذكره القرطبي في تفسيره قال : قالت الحكماء : « . . . ومن جوهر النار : الحفة والطيش والحدة والاضطراب » .

وهي صفات يمكن استنباطها بمجرد المشاهدة والراس ، ويجمعها لك معنى العجلة والغضب ، ويستأنس لها بما رواه أبو يعلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التأتى من الله ، والعجلة من الشيطان » . قال الحافظ المنذرى : ورواته رواية الصحيح . . . وبما رواه أبو داود : « إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار » .

فالتأتى ليس معناه البطء والتسويق عن مبادرة الباقيات الصالحات ، إنما هو النظرة الفاحصة البعيدة التي تريك وجه الأمر وعواقبه ؛ أما العجلة فهي من قصور النظر وسقوط

المهمة عن أن تتعلق بالغايات الكريمة البعيدة ، اكتفاء بما يبدو من وجه الأمر وظاهره لأول وهلة .

ولعل المتأمل في قصة امتناع إبليس من السجود لآدم يرى أثر العجلة والغضب في عصيانه أمر الله ، فإن طبع الكبر ما كاد يحضره ويتحرك في نفسه حتى حضره طبع الطيش والحفة ، فمجل إلى اتخاذ هذا الموقف من الله دون أن يجد في طبعه مسكة من الحلم والروية ؛ وأعماء غضبه الذي سارع إليه عن أن يرى عاقبة أمره ، وينظر فيما يحل به ، وهو الذي يعرف من قهر الله وبطشه ما يعرف .

شياطين الإنس :

تلك ثلاثة من صفات الشيطان الأصلية كانت مستكنة في طبعه فلم يظهر أثرها إلا حين نفخ الله سر الحق والخير في آدم وجعله أهلاً للتكرمة والتفضيل .

ولقد قلنا إننا في قصة التكوين بإزاء تقرير صفات مجردة ؛ فالشيطان ليس شراً على نفسه وعلى غيره إلا بهذه الصفات ، فحينما وجدنا هذه الصفات في تراب أو نار ... في إنس أو جن فنحن بإزاء شيطان .. ولهذا أمرنا في القرآن الكريم أن نستعيز من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في الصدور من الجنة والناس ... بل لقد جاء القول صريحاً في القرآن الكريم بأن من البشر شياطين تعادى الحق الذي جاءت به الأنبياء كما تعاديه شياطين الجن : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا (١) » .

ولشياطين الإنس في إضلال المجتمع وفتنته وتزيين الشر له أساليب تختلف باختلاف ما لكل من ثقافة أو بيئة أو مهنة أو جاء ، ولكنها تهدف كلها إلى غاية واحدة هي معاندة الحق وردة ومحاولة إطفاء نوره ؛ وإن تخطىء في هؤلاء الشياطين صفات الكبر والعجلة والضيق بدعوة الدعاة وإعلان الغضب عليهم والثورة بهم .

وإنك لتجد الكبر يذهب بأحد هؤلاء إلى حد الاشتزاز من الله نفسه دون الاكتفاء برد الرسالة ، والإعراض عما جاءهم من الحق ؛ ولقد ابتلينا في مجتمعنا هذا بمن إذا حدثته عن الله رأى نفسه فوق ذلك وأنتفض إليك رأسه ، فإذا حدثته عما قال فلان أو فلان من فلاسفة الفرنجة انبسط إليك وأقبلت أساريره نحوك بالبشر لما تقول ؛ وذلك

ديدنهم في كل عصر : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون (١) »

فإذا نظرنا إلى طبع الأنانية الذي غاب على الشيطان فملاًه بالحق على آدم ودفعه إلى أن يضمر له عداوة الأبد ، وجدنا أن هذا الطبع نفسه هو الذي يدفع شياطين الإنس إلى معاداة الرسل والأنبياء ودعاة الإصلاح في كل عصر ، ذلك أنهم يدركون ما تهدف إليه الدعوة من تغيير أوضاع المجتمع ، وهي أوضاع حسنت بها حالهم واتسقت منافعهم ، وقام لهم بها جاه وسلطان ، فلا يتصور من أحدهم أن يستكين لها حتى تقضى عليه ، بل لا بد من منازلتها بكل ما يملك من قوة ؛ ولا يتصور منه حينئذ أن يكون مستعداً للأخذ والعطاء والإصغاء لتبين وجه الحق فيما يقال . فإن العقدة لديهم ليست في افتقارهم إلى وضوح البرهان ونصاعة الحجة ، فلعل وضوح البرهان مما يزيد فرعهم ، ويضعف طاقات المقاومة في نفوسهم ، بل المسألة بالنسبة إليهم مسألة حياة أو موت ، حياة ترف وجاه ومنفعة ترتبط بهذه الأوضاع ؛ أو موت تفلت به منهم أسباب السيطرة والمنفعة . . فإذا ثاروا في وجه دعاة الإصلاح يكفونهم عن الكلام ويسلبونهم حرية الدعوة والبلاغ ؛ فهي سنة أمثالهم منذ كان في الأرض طائفة تنتفع من الأوضاع الفاسدة « ألم يأتكم نبياً الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم ، وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به (٢) . . . » بل إنهم إذا ثاروا بهم يشوهون قصدهم ويستعدون ذوى السلطان عليهم فهي كذلك سنة أمثالهم في كل عصر : « وقال الملائكة من قوم فرعون أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك ، قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم ، وإنا فوقهم قاهرون (٣) » ، « وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٤) » .

حرب صفات لصفات :

وبعد فإننا لم نفرغ من كل خصائص الشيطان وطبيعة النار التي خلق منها ، فمن خصائص النار الإحراق والإهلاك والإتلاف . . ولسنا بحاجة في تعرف ذلك إلى الاستئناس بأثر من الكتاب أو السنة فهو من خصائص كل نار نعرف . غير أنه إحراق لا ينال أجسامنا ولا الظاهر من صورنا ومادياتنا ، بل هو مسلط

(٢) سورة إبراهيم : ٩ .

(٤) غافر : ٢٦ .

(١) سورة الزمر : ٤٥

(٣) الأعراف : ١٢٧

على حقيقة الإنسان وما أنشأ الإيمان في صدره من دواعي الخير وعزائم الرشد ، وهي المعيار الذي تقوم به درجته « فإن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

فإذا أتى الشيطان على تلك القلوب والأعمال ، فقد أتى على حقيقة الإنسان ، وأباد أنفوس ما يملك ، فجرد باطنه من كل خير ، ولم يترك له إلا صورة اللحم والدم ، وهي لا تزن في ميزان الحق مثقال ذرة .

ولقد قررنا في غير موضع أن السر الذي نفخ في الإنسان من روح الله هو الجانب الحى فيه ، وهو الذى يمد طبيعته الترابية السلبية بأسرار القوة والإيجاب ، فإذا بها قادرة على إظهار أكمل الفضائل وأحسن الصفات . هذا الفرس الطيب وهذا النور فى الطينة الظلماء هو الهدف الذى يكيد له الشيطان ، وهو ما يهيج فيه أعاصير الشر والحقد والغضب .

ولقد عرضنا فى صدر هذا الكلام أن القرآن الكريم شبه ما يصير إليه حال الإنسان إذا آمن بربه وابتغى رضاه بصالح العمل بأنه « جنة ربوة أصابها وابل فأنت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل » .

ومما له مغزى عميق يتصل بموضوعنا الذى نعرض له ، أنه ذكر عقب هذا التشبيه صورة أخرى لما يمكن أن يحدثه الشيطان فى إتلاف تلك الجنة « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب . » إلى « فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (١) » .

ولسنا الآن بصدد شرح تلك الحقائق النفيسة فى كتاب الله ، لأنها أدخل فى باب التطبيق العملى ، ونحن فى مقام التقرير النظرى لخصائص الأشياء ، ولعل مما يؤنس إيمانك فى هذا المقام أن نسوق لك ما جاء فى صحيح البخارى متعلقاً بهذا المعنى : « قال عمر رضى الله عنه يوماً لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : (فيم ترون هذه الآية نزلت : أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل . . الآية) قالوا : الله أعلم . فغضب عمر وقال قولوا نعلم أو لا نعلم .. فقال ابن عباس : فى نفسى منها شيء يا أمير المؤمنين . فقال عمر : قل يا ابن أخى ولا تحقر نفسك . قال ابن عباس : ضربت مثلاً لعمل . فقال عمر : أى عمل ؟ قال ابن عباس : لِعَمَلِ رجل عمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان ، فعمل بالمعاصى حتى أحرق عمله » .

وإذا كان الشيطان يحرق ويدمر ما ينشئه الإيمان في قلب ابن آدم من مظاهر الحياة والعمران الروحي ، فإن تلك الصفات البغيضة « الكبر ، والعجلة ، والغضب » هي ألسنته النارية التي يحتال لتسريبها إلى نفوس الناس ، فأياها صفة منها استطاع أن يقدفها في روع أحد محقت ما فيه من خير وكان لها أثرها الاجتماعي السيء .

فالحرب بين الشيطان والإنسان حرب صفات لصفات ، وقد ذكر لنا الإسلام من ملامح صفات الشيطان ما يكفي لمعرفة النجاة منها .

فقال لنا عن الكبر : « إنه بطر الحق ، وغمط الناس » فمن أنس من نفسه شيئاً من ذلك ففيه شعبة من خصال إبليس .

وقال عن الغضب وطريقة العصمة منه : « إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تظمأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » .

أما العجلة فعلاجها اتباع ما جاء به الإسلام قولاً وعملاً وأمرأً ونهيأً ، وسلباً وإيجاباً فإنه لا عجلة في اتباع الحق الواضح ... فإذا كنا بإزاء شأن ليس فيه نص إسلامي قطعي الثبوت والدلالة استفتينا القلب الذي يرجو لقاء الله والدار الآخرة ، فإن استشعار القلب للقاء الله يرى صاحبه موقع كل عمل في الآخرة ، أي يمد نظره العاجلة إلى ما وراء أفقه الدينوي ، وهذا فارق ما بين العجلة والتأني .

وبعد فهذه بعض صفات الشيطان ، ولعل ما جالونا منها يبصرنا بأمر هذا العدو ويعيننا على الظفر به في معركة الخير والشر الأزلية . والله المستعان .

القرآن

حُجَّة على الملحد ، وبيان للموحد ، قائم بالخلال المنزل ، والحرام المفصل ، وفاصل بين الحق والباطل ، وحاكم يرجع إليه العالم والجاهل ، وإمام تقام به الفروض والنوافل ، وشهاب لا يطفأ نوره ، وبحر لا يدرك غوره ، ومعقل يمنع من الهلكة والبوار ، ومرشد يدل على طريق الجنة والنار .

شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله

أفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

(٢)

١١ — ذكرنا في المقال السابق بإيجاز وجوه إعجاز القرآن مبينين أن ما اشتمل عليه من أحكام إذا ووزن بما كان عليه الناس وقت نزول القرآن كان وحده دليلاً على أن القرآن من عند الله ؛ بل إن أحكامه لا تزال جديدة إذا ووزنت بما عليه الناس اليوم ، إذ بالموازنة يتبين أنها سبقت سبقاً بعيداً ، وأن الناس مهما تتفتق عقولهم عن شرائع قد وصلوا إليها بتجارب قضائية ، وتجارب عملية ؛ وبالاستعانة بتممرات العقول ، وما أنتجته الفلسفة والعلم ، فلن يصلوا إلى ما جاء على لسان النبي الأُمِّي محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن عمل الإنسان مهما تكن قدرته ناقص ، والكمال لله وحده ، وفي أى جانب اخترت للموازنة تنتهى بالحكم الجازم القاطع بسبق النبي صلى الله عليه وسلم ، وعدم بلوغ أحد ما قرره وثبته منذ ثلاثة عشر قرناً ، إلا أن يقبسوا من نوره ، ويأخذوا من هديه ، وينهلوا من معينه ، ففيه الحكمة ، وفصل الخطاب .

١٢ — ولنختار الموازنة في بعض أحكام الأسرة ؛ فإن أحكام الأسرة التي اشتمل عليها القرآن ، وبينها النبي صلى الله عليه وسلم موضع هجوم المهاجمين ، وهدف لسهام النقد ، وسنبين أن تلك السهام مردودة في نحورهم ، وسنلوي مقدم الدلائل الذي ساقوه على نذيجتهم ، ونبين منه للباحث النصف أن أحكام الأسرة في القرآن دليل إعجازه ، وأن العقل البشري لم يصل إلى ما يقاربها .

لقد عابوا على شريعة القرآن إباحتها الطلاق ، وإباحتها تعدد الزوجات ، وشنعوا في المحلل وهو ليس من القرآن في شيء ؛ وقد ثارت عجاجة هذه المسائل في آخر القرن الماضي وصدر هذا القرن ؛ وخاضت فيها الأقلام ؛ وأخذ الذين يحاولون تقريب الإسلام من شرائع الغرب ، يقترحون وضع القيود أمام التعدد . بل استرسلوا فأرادوا وضع القيود أمام الطلاق ، وعقوبة المطلقين بالزج في غياهب السجن .

١٣ — وإن التاريخ كتاب العبر ، وسفر المعتبر يرينا أن الهجوم على الإسلام من ناحية الطلاق وتعدد الزوجات وما يتصل بذلك ليس وليد ذلك العصر ، بل إنه يتغلغل في القدم إلى العصر الأموي ، وإذا رجعنا إلى الوراثة نتعرف المصدر الذي كان يبعث ذلك ، وجدنا رجلاً اسمه يوحنا الدمشقي كان في خدمة الأمويين هو وأبوه ، واستمر في خدمتهم إلى عهد هشام بن عبد الملك ، كان يؤله أن يدخل النصارى في الإسلام أفواجا أفواجا ؛ فكان يجتهد في أن يسلح النصارى باعتراضات يعترضون بها على الإسلام ؛ ليشتكوا العرب في دينه ؛ وليقروا حجة النصراني ، فيستطيع التغلب على العربي . وقد جاء في كتاب تراث الإسلام عن يوحنا هذا أنه كان يقول : « إذا سألك العربي ما تقول في المسيح ، فقل إنه كلمة الله ، ثم ليسأل النصراني المسلم ، بم سمي المسيح في القرآن ؛ وايرفض أن يتكلم في شيء حتى يجيب المسلم ، فإنه سيضطر إلى أن يقول إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فإذا أجاب بذلك فاسأله عن كلمة الله وروحه مخلوقة أم غير مخلوقة ؟ فإن قال مخلوقة فليرد عليه بأنه كان ، ولم تكن له كلمة ولا روح ، فإن قلت ذلك فسيفهم العربي لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين » .

ومع هذا التلقين الذي يحاول به التشكيك في العقيدة كان يلقيهم أيضاً أن يتكلموا في تعدد الزوجات ، وفي إباحة الطلاق ثم يثير فيهم أكاذيب حول النبي صلى الله عليه وسلم فيخترع قصة عشق النبي صلى الله عليه وسلم لزينب بنت جحش التي كانت وليدة عقل ذلك الكاذب الأفاق (١) .

١٤ — ولقد كان جزاء ذلك الصنيع عند النصارى أن اعتبروا صاحبه قديساً ؛ وإذا كان الاعتراض على الإسلام متحداً بين يوحنا ، وأهل ذلك العصر ؛ فلا بد أن يكون المصدر واحداً ؛ ولكننا لا نتبع الأصول لنعرف الفروع ، ولا نتبع الجذور لنعرف نوع الثمار ، بل إننا قد اعترانا نوع من الضعف النفسي عند بعض الذين يسمون الخاصة ؛ فحسبوا أن كل ما عند الأوروبيين سائغ فرات ، وكل ما عندنا ملح أجاج ، وليسوا في حاجة إلى دس أمثال يوحنا الدمشقي ؛ بل إنه يكفي أن يكون الأوروبيون لا تسيغ شريعتهم التعدد ، حتى يكون ذلك المنع سائغاً مقبولا ، وحتى يكون ما عند المسلمين مقبلاً مردولاً .

(١) راجع هذا كله في كتاب تراث الإسلام ، وكتاب المخطوطات العربية للأب لويس شيخو ، وقد ذكر هذا أيضاً الجاحظ في رسالة النصارى (مجموعة رسائل طبعها المستشرق فنكل) .

وهكذا يفعل الاستخذاء في نفوس الضعفاء ؛ يستقبحون كل ما بأيديهم ، ويستحسنون كل ما بأيدي الأقوياء .

١٥ — ونحن إذا حاولنا أن نبين فضل الشريعة في الزواج والطلاق ، فإننا لا نرد على المسلمين الذين ردّوا تلك الأقوال عن غير بينة ، بل إننا نرد على الذين أناروها بين المسلمين ، ولم يجدوا مرتعاً خصيباً من أقدم العصور إلا في أذهان رجال في عصرنا ، ونحن نتكلم في هذه الأمور الثلاثة : قصة زيد وزينب ، ونظام التبني والنسب ، وتعدد الزوجات والطلاق .

ونبدأ بقصة زيد وزينب والتبني ؛ لأن كثيرين خدعوا بالكذب الذي أثير حولها ؛ ووجدنا في مصر كاتباً كبيراً كتب في السيرة ، وجعل لها عنواناً قائماً بذاته ، سماه عشق النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعض كتب التفسير راج فيها ذلك الدس الحبيث ، ولأن إثارة القول في هذه القصة يجرنا إلى الكلام في خاصة اختصت بها الشريعة الإسلامية في النسب ؛ وهي أن التبني لا يوجد نسباً ، ولا يثبت حقوقاً ، ولا يلزم بواجبات ، وذلك غير ما كان عند الرومان ، ولأن تلك القصة تكشف عن خلق النبي الكريم .

١٦ — كان لمحمد مولى هو زيد بن حارثة ؛ وقد اختطف من قبيلته ، وبيع يثع العبيد ، وآل أمره إلى سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم فحُب عليه وأكرم ؛ وجعله منه بمنزلة الولد ، يرفق به رفق الأب بولده ؛ فلما عثر عليه أهله ، وأرادوا أن يفتدوه بشئ أو بأكثر رضى المقام مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فأعتقه عليه السلام ، وألحقه بنسبه وتبناه ، وكان ذلك شرعاً مقررّاً عند العرب ؛ وعرف بين الناس أنه زيد ابن محمد ؛ فكان قرشياً هاشمياً بهذا الإلحاق ، وتزوج زينب بنت جحش على أنه زيد ابن محمد ، لأنه كف لها بهذا النسب القانوني عندهم . ولكن الإسلام منع التبني ، وقال الله سبحانه في أول سورة الأحزاب : « وما جعل أدياءكم أبناءكم ، ذلك قولكم بأفواهكم ؛ والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، ادعواهم لأبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فأخوانكم في الدين ومواليكم » .

ثم أردف هذا بقوله تعالى : « ما كان محمد أباً أحدهم من رجالكم ، ولكن رسول الله ، وخاتم النبيين » ، عندئذ بدا الصريح عن الرغبة وتبين أن زيداً ليس ابن محمد ، ولكنه ابن حارثة ، وتبين أنه ليس قرشياً ، ثم تبين أنه ليس كفئاً لهذه الزوجة المعتزة بنسبها الفخورة بقدمها ؛ فتعلمت به ؛ وتعلم بها لكبريائها واعتزازها بنسبها فكان لا بد أن يفترقا ؛ لتعذر العشرة الحسنة بينهما .

ولقد كان التبني نظاماً مقررّاً ثابتاً في النفس العربية ؛ مشهوراً متغلغلة فسكرته في نفوس العرب ، كما كان الشأن عند مجاورهم الرومان الذين كانوا ينظمون أحكامهم ويرتبون حقوقه وواجباته ؛ وكان لا بد لاقتلاعه من النفس العربية — من قارعة مشهورة تفرع حسهم ؛ فابتلى الله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يكون التولي لهذه القارعة تنمياً لرسالته ، وقياماً بحق التبليغ ، ابتلاء بأن يتزوج زينب عندما تطلق من زوجها ، وصدر إليه أمر السماء بأن يكون على أهبة لذلك ؛ ولكنه لم يعلن ذلك الأمر ، وأعلم أن زيدا مطلق زينب لا محالة لاستحكام النفرة ، وأخفى النبي أيضاً عن الزوجين ما علم .

وفي هذه الأثناء كان زيد لا يفي عن شكوى زوجته إلى الرسول ، واستئذانه في طلاقها ، وقد حكى الله سبحانه قول النبي صلى الله عليه وسلم له فقال : « وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه » أي تخفي في نفسك أنه لا بد مطلقها ، وأن الله أمرك بتزوجها ؛ « ما الله مبديه » وهو أمر الزواج والطلاق ، وليس أمر العشق والهوى ؛ لأن الله سبحانه ما أبدى عشقاً للنبي وهوى له ، « وتخشى الناس » تستحي من مفاجأتهم بغير ما يألفون ، « والله أحق أن تخشاه » وقد أمرك فلا مناص من الإجابة : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولاً ؛ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الدين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

١٧ — هذه الآيات الكريمة صريحة في أن الأمر قد قصد به قارعة تفرع حس العرب ، لكي تقطع من نفوسهم فكرة التبني ، وقد صرح الله سبحانه بذلك إذ قال : « لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم » .

ولقد تعلق الدساسون ، ومن تبعهم من الجهلاء بقوله تعالى : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه » فزعموا أن الذي أخفاه الحب والهيام ، وفات الجهلاء أن الله ما أبدى شيئاً من ذلك ؛ وإن الذي فسرنا به الآية ليس بدعا ابتدئناه ، ولا بديثاً سبقنا به ، بل هو التفسير الأثرى الصحيح .

فقد جاء في تفسير ابن كثير ما نصه : (عن علي بن زيد بن جدعان ، قال سألتني علي بن الحسين رضي الله عنه ما يقول الحسن في قوله تعالى : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه » قال : لا . . . ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه . قال : « اتق الله ، وأمسك عليك زوجك » فقال قد أخبرتك أني مزوجكمها « وتخفي في نفسك ما الله مبديه ») .

ومن الغريب أن دس يوحنا الدمشقي في هذا المقام كان عظيم الأثر ، حتى راجت عن التابعين الروايات التي تدل على التأثير بذلك التفكير البعيد عن حقيقة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بل إن ابن جرير شيخ مفسري السلف وقع في تأثير تلك الروايات ، فقبلها تفسيراً ورأياً ، مع أنها كلها روايات باطلة ، وقد قال ابن كثير في ذلك : « ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا آثاراً عن بعض السلف رضى الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحا لعدم صحتها فلا نوردها » (١) .

١٨ -- هذه حقيقة الأمر في ذلك الأمر الذي روجه المفسدون من أقدم العصور إلى اليوم ، وإنا سقنا ذلك القول لا لبيان ذلك فقط ؛ بل لتنفيذ منه إلى ما اتجهت إليه الشريعة في تحرى الأسباب والمحافظة عليها والصيانة للفضيلة والحرص عليها . ولقد أغلقت الشريعة باب التبنى ، فقد قال الله تعالى : « ادعواهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم » . فما أعدل حكم الله يحث على أن يُدعى الناس لآبائهم ؛ لأن التبنى كذب في ذاته ، واعتماد على الآباء الحقيقيين ، فكان القسط عند الله أن يكون كل امرئ لأبيه ، فإن لم يكن لهم أب فلن يكسبوا شرفاً بذلك الادعاء الباطل ؛ الذي هو كذب في ذاته ، بل الشرف كل الشرف لهم في أن يكونوا إخواناً لكم ونصراء ، ولا تعتبرهم أذنياء أذلاء ؛ لأن الشرف لا يكتسب بالكذب ، والشرف الحقيقي هو في الأخوة الإسلامية العامة .

١٩ -- هذا ما يقرره محمد بن عبد الله الأمي الذي كان في أمة تعتبر من أسباب ثبوت النسب الإلحاق والتبني كما كان ذلك مقررراً عند الرومان ؛ واقد ادعى بعض المستشرقين — ولم ينف ادعاءه — أن محمداً أتى بالعادات العربية ، فجعل منها أحكاماً واجبة التطبيق ، وهذا كلام لا يقف على أصل ثابت ، ولا يعتمد على دعامة قائمة ، بل هو فرية لاشك فيها ؛ ولو كان محمد كذلك فيما أنزل عليه من شرع لأقر نظام التبني كما كان عند العرب ، ولاستمر زيد ابنه له ، وقد كان صفيه وحببه ، حتى إنه كان يلى ابنته فاطمة في المحبة ، ولكن شرع الله أتى بالعدل والقسط الذي لم ينطق به أحد ؛ ولم يقله أحد ؛ ولم يجر على لسان أحد قبل محمد في البلاد العربية وما حولها « ادعواهم لآبائهم هو أقسط عند الله » .

وإن أردت أن تعرف فضل الإسلام ، فاقرنه بقانون الرومان الذي كان يعتبر

القانون الأمثل في ذلك الزمن الغابر ، بل إنه لا زال يعتبر من أمثل القوانين في عصرنا الحاضر .

٢٠ — كان القانون الروماني يميز التبنى للأولاد المجهولي النسب وغير المجهولي النسب . ومجهولو النسب ومعلومو النسب تبنيهم يجوز بالاتفاق معهم وتصديق الامبراطور إن لم يكونوا في ولاية أحد ، وإن كانوا في ولاية آبائهم فبالاتفاق مع آبائهم ؛ وكأن النسب شيء يمكن الاتفاق بالتراضي عليه ، ولعل الأمر المعقول في هذا التبنى غير المعقول أنهم اشترطوا أن يولد مثل الدعي لمدعيه ، فقد جاء في مدونة جوستنيان مانعه : « ومن المقرر أنه ليس لأحد قط أن يتبنى من هو أكبر منه سناً ؛ لأن التبنى محاكاة للطبيعة ، وبما يخالف الطبيعة أن يكون الابن أكبر سناً من أبيه ، وعليه فمن يريد أن يتبنى أحداً أو يستلحقه يجب أن يكون أسنّ منه بقدر مدة البلوغ التام : أي بمقدار مائة عشرة سنة » .

وقد كان الذين يتبنون ولهم آباء معروفون يجردون من أسرهم تماماً ، ويصيرون من أسرة من تبناهم .

٢١ — وإن فرق ما بين شريعة القرآن ، وقانون الرومان في هذا المقام هو فرق ما بين الطبيعة والفطرة ، وما هو ضد الطبيعة والفطرة ، وفرق ما بين الصدق والكذب ؛ فهذه الشريعة قصرت النسب على الطريق المنطقي المعقول المشتق من الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وفي الدائرة الفاضلة التي تربط الناس بشكائهم الأخلاق ، بينما القانون الروماني والعادات العربية تتجانب عن طريق الفطرة ، فتجعل غير الأب أباً ، وتجعل للشخص الواحد أبوين ، وكأن الأبوة الإنسانية تنشأ بالاتفاق ، كما تنشأ ملكية الأشياء والمنافع ، وإذا كان النبي الأُمّى قد قرر تلك الحقائق التي جاءت على غير المألوف عندهم ، بل إنه هو نفسه قد خضع له وقتاً ما ، وقال إن تلك الحقائق هي من عند الله ، فمن الذي يكذبه معتمداً على حق أو على أمر معقول ، إنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب قط ولم يتعلم قط ، ولم يكن في عصره علم على هذا النوع حتى يكون قد لقّنه أو تعلمه ، إنه بلا ريب من عند الله العالم الحكيم .

٢٢ — هذا شأن ثبوت النسب في الإسلام جعلوا أساسه الفطرة مع الفضيلة فجعل النسب لا يثبت إلا في ظل زوجة شرعية ، ولا يثبت من إثم فاجر ، فقال عليه السلام : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ، لأن ثبوت النسب نعمة تساق إلى المنتسب والمنسوب إليه ، بل هو أعظم نعمة تساق في هذا الوجود الإنساني ، وإنه لو فتح الباب فيه للزيلة كما هو مفتوح للفضيلة لكانت الأنساب فوضى ليس لها حدود ولا ضوابط ، وكان

يسوغ للبغى أن تلحق ولداً برجل مجرد مسالخة عارضة ، كما كان يجري في بعض بقايا العرب ؛ فقد كانت البغى تلحق أولادها بمن تشاء ممن بغوا معها ؛ ولا شك أنها مستختار الأملاء والأشراف ، وإن لم يكن الولد منه ، لذلك كان لا بد من وضع حدود حازجة ، ولا بد أن يكون الحد الراسم للحقوق في ثبوت النسب أمراً ظاهراً ، لكي يمكن الاحتكام إليه ، ثم لا بد أن يكون ذلك الأمر فاضلاً ، ولا يكون آثماً ؛ إذ أن الطرق الآتية في هذا الباب وغيره ماثرات للشيطان ؛ ولا يمكن الاهتداء إلى حق في وسطها ، ولا معرفة حقيقة مستقرة في ظلامها ، لأنها ظلام معتم يؤدي إلى الفوضى في الأنساب .

٢٣ — وبعد هذا انتقل إلى تعدد الزوجات ، وهو الأمر الذي كان يتخذه يوحنا الدمشقي سبيلاً لتشكيك المسلمين في دينهم ، ومنع النصارى من الانتقال إليه ، إذ قد يتبين لهم الهدى فيه . وسنبين أن شريعة محمد في تعدد الزوجات تدل على أن محمداً ما كان ينطق عن الهوى بل هو وحى يوحى ، وأن القرآن الذي نظم أمرها ليس من عند محمد بل هو من عند اللطيف الخبير .

لقد كان التعدد في الزوجات قبل الإسلام مطلقاً من غير قيد يقيد ، فلم تقيد الشريعة الموسوية بأي قيد من العدد ، وفي بعض عهوده قيدوه بنمائي عشرة ؛ لأنها أقصى ما يمكن أن تصل إليه الطاقة في الإنفاق ، ولم تكن أمة توحد في الزوجة إلا مصر ، وسرى إلى الرومان عن طريقهم منع التعدد ؛ وبهذا أخذ النصارى ، وليس في الأناجيل ولا في رسائل الرسل عندهم أي عبارة تفيد منع التعدد .

ولقد كان العرب يعددون من غير قيد يقيدهم ، لأن المرأة كانت عندهم كالمتاع ، بل إن الزوجة كانت تورث كما تورث التركة ؛ فجاء محمد الأُمى ووقف حاجزاً دون ذلك الإفراط ، ودون ذلك الظلم ، ورد للمرأة كرامتها ؛ فمنع العدد لأكثر من أربع ، واشترط القرآن الكريم لإباحة التعدد إقامة العدل والقدرة على الإنفاق ؛ ولذلك قال سبحانه « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعدلوا » . وقد اتفق علماء المسلمين على أمرين (أولهما) أن المراد بالعدل هو العدل الظاهر الذي يستطيعه كل إنسان ، وليس المراد العدل في المحبة القلبية ، الذي نفى الله استطاعته نفيّاً مؤكداً في قوله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » .

(وثانيهما) : أن الزواج مع عدم تحقق العدالة زواج صحيح وليس يبطل لاستيفاء أركانه وشروطه ، ولأن العقود تناط بصحتها وفسادها بأمور متحققة واقعة عند العقد ،

لا بأمور متوقعة ، والشخص عند الزواج لا يتحقق ظلمه ، إنما يتحقق بعد ذلك ، وربما لا يتحقق فيجئ ما ليس في الحسبان ويعدل ، ولكنه يكون آثماً إذا ظلم ، كما يتحقق الإثم في كل ظلم ، بل إثمنا مضاعف ؛ لأنه ظلم أولاً ، وتزوج وهو يعتقد أنه يظلم ، فكان عاصياً من هذه الناحية ثانياً .

٢٤ — وإن المسلك الذي سلكته شريعة القرآن هو المسلك المستقيم ، فلم تبحه بإطلاق ، ولم تمنعه بإطلاق ، وإن ذلك هو الذي يتفق مع عموم الرسالة للناس في كل الأجيال وكل الأجناس ، وكل الطبقات ، فهي قد جاءت للجنس الأبيض ، والجنس الأحمر ، والجنس الأصفر ، والجنس الأسود ، ومن يسكن في البلاد الحارة ، ومن يسكن في البلاد الباردة . وإن الشريعة التي يكون لها ذلك العموم ، يكون فيها من الرونة والسعة ما يوافق كل الأمزجة ولا يشق عليها ، وما تعالج به كل الأدواء ، ويجب أن تكون قيودها قابلة للسعة والضيق .

وإن ذلك المعنى واضح كل الوضوح في تعدد الزوجات ، لقد أبيع عدد يجد فيه الذواق القادر على إقامة العدل رغبته ، وقيد في الإباحة بقيد لو شدد فيه لكان قريباً من المنع المطلق ، ولو أرخى فيه لكان بين ذلك قواماً ، ولو كانت الشريعة لأهل أوربا فقط ، وهم الذين تمرست نفوس بعضهم بالزوجة الواحدة لأستساغت نفوسهم في ظاهر الأمر المنع ، ولوجدوا في شدة القيد ما ألقوه من أحكام الزواج ، ولكن الإسلام خاطب الجميع ؛ ولا يزال في الدنيا ناس لا يعرفون إلا التعدد ، وفي الدنيا نساء يفرحن عند دخول ضرة جديدة عليهن ؛ لأنها تخفف عنهن أثقال الخدمة ، وتكون لهن الرياسة عليها ، فهل يستسيغ هؤلاء المنع المطلق ؟ .

إنه إن أغلق باب التعدد وأحكم إغلاقه بالمنع المطلق اقتحم الرجال الذين يصعب عليهم ذلك المنع أبواب الفسق ؛ فهتكت الأعراض وكثر الأولاد الذين لا آباء لهم ، وكثرت الأمراض الحبيثة التي تنتقل إلى الذرية . لقد حرم الأوربيون تعدد الزوجات واستمسكوا به ، وارتضوه ديناً ، ولكنهم فتحوا لأنفسهم باب الحرام على مصراعيه ، فكان التضيق في الحلال سبباً في التوسع في الحرام فانسابوا فيه انسياً ، وكان الوباء على النسل في البلاد عظيماً . وإن العاقل لو خير بين حلال معيب وحرام لا شك فيه لاختار الحلال المعيب ، ولو خير بين تعدد فيه رعاية الأولاد وحفظ الأنساب ، وبين فسق فيه إهمال الأولاد وضياع الأنساب لاختار الأول بلا شك .

٣٥ — وإن التعدد قد يكون علاجاً اجتماعياً لنقص يوجد للأمة في رجالها

ونسلمها ، فقد يقل عدد الرجال الصالحين للزواج عن عدد الإناث ، وقد بدأ ذلك في ألمانيا بعد الحرب الأخيرة ، فقد صار عدد النساء الصالحات للزواج أضعاف عدد الرجال الصالحين ، وخيف على النسل ، ولذلك أباحت حكومة (بون) عاصمة ألمانيا الغربية التعدد ؛ لأنها وجدت فيه علاجاً لهذا الداء الاجتماعي ، وسبيلاً لتكثير نسلها ، وإلا أوشكت على الفناء ! .

وفوق ذلك ففيه تحفظ المرأة من الدنس ، ولا يهون شأنها ؛ وأى الأمرين يكون أهون بالمرأة ، وأحط لدرجتها في الاجتماع : أن تكون زوجاً لها بيت ترعاه ، وزوج يرعاها ؛ وأولاد شرعيون تقوم على شئونهم ، أم أن تكون خلية أو بغيّاً ليس لها زوج تنادي باسمه ، ولا بيت تأوى إليه ؛ وأولادها ليس لهم أب كافل يحميهم ؟ إن الهوان بلا شك في الثاني .

وإن إباحة التعدد فيه تكثير للنسل ، وحفظ له ، وإن الأمم تتنافس على الحرب ، وأداة الحرب في الحاضر كما كانت في الماضي العدة والعدد ، ولقد كثرت روسيا ألمانيا في الحرب الأخيرة بعددها ، وإن كانت دونها في العتاد ؛ فغلبتها ، لأنه كلما فزيت منها كتيبة أعقبتها أخرى .

وإن التعدد ليس في مصلحة الرجل دائماً ؛ وليس ضرراً على المرأة دائماً ، فقد يكون لها ضرورة لا بد منها ، ليحفظ لها اعتبارها ، فقد يكون بين الرجل والمرأة ما ينزل بقدرها ، ويجعلها عاراً على ذويها ، ولا يمحو العار إلا الزواج ، فإذا كان الرجل متزوجاً ، فإن التعدد يكون من مصلحة المرأة لا محالة .

إن التعدد العادل طريق سوى ؛ وإن النظر الفاحص ينتهي لا محالة إلى أن التعدد في مصلحة المرأة ، فإن أى امرأة لا تقدم على التزوج بمتزوج إلا إذا كانت على ثقة كاملة بأن ذلك من مصلحتها ، أو الضرورة ألزمتها بذلك .

هذا منطق الحياة ، وتلك شريعة الله ؛ فإذا كانت قد جاءت على لسان أمي لم يؤت علماً ، وقال إن ذلك من عند الله ، ألا يكون قوله مع حاله فيه الدليل الساطع ، والبرهان القاطع ؟ .

وفي المقال التالي نبين الأمر في الطلاق ، والله ولى التوفيق .

السُّنَّة

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعي

(٢)

وجوب طاعة رسول الله في حياته

كان الصحابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفيدون أحكام الشرع من القرآن الكريم الذي يتلقونه عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وكثيرا ما كانت تنزل آيات القرآن مجملة غير مفصلة ، أو مطلقة غير مقيدة ؛ كالأمر بالصلاة جاء مجملا لم يبين في القرآن عدد ركعاتها ولا هيئتها ولا أوقاتها ، وكالأمر بالزكاة جاء مطلقا لم يقيد بالحد الأدنى الذي تجب فيه الزكاة ، ولم يبين مقاديرها ولا شروطها ، وكذلك كثير من الأحكام التي لا يمكن تنفيذها دون الوقوف على شرح ما يتصل بها من شروط وأركان ومفصلات ؛ فكان لابد لهم من الرجوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعرفة الأحكام معرفة تفصيلية واضحة . وكذلك كان يقع لهم كثير من الحوادث التي لم ينص عليها في القرآن فلا بد من بيان حكمها عن طريقه عليه الصلاة والسلام وهو مبلغ عن ربه ، وأدري الخلق بمقاصد شريعة الله وحدودها ونهجها ومراميها ، وقد أخبر الله في كتابه الكريم أن مهمة الرسول بالنسبة للقرآن أنه مبين له وموضح لمراميها وآياته حيث يقول الله تعالى في كتابه : « وأزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ^(١) » كما بين أن مهمته إيضاح الحق حين يختلف فيه الناس : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ^(٢) » وأوجب النزول على حكمه في كل خلاف : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ^(٣) » وأخبر أنه أوتي القرآن والحكمة ليعلم الناس أحكام دينهم فقال : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ^(٤) » .

وقد ذهب جمهور العلماء والمحققين إلى أن الحكمة شيء غير القرآن ، وهي ما أطلعه

الله عليه من أسرار دينية وأحكام شرعية ، ويعبر العلماء عنها بالسنة . قال الشافعي رحمه الله : « فذكر الله الكتاب وهو القرآن وذكر الحكمة فسمعت من أرضي من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله ، أو هذا يشبه ما قال والله أعلم ؛ لأن القرآن ذكر وأُتبعته الحكمة وذكر الله منته على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة فلم يجز ، — والله أعلم — أن يقال الحكمة هنا إلا سنة رسول الله ، وذلك أنها مقرونة مع الكتاب ، وأن الله افترض طاعة رسوله وحتم على الناس اتباع أمره فلا يجوز أن يقال لقول فرض إلا لكتاب الله وسنة رسوله لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقروناً بالإيمان به^(١) » . وواضح مما ذكره الشافعي هنا — رحمه الله — أنه يجزم بأن الحكمة هي السنة لأن الله عطفها على الكتاب وذلك يقتضي المغايرة ولا يصح أن تكون شيئاً غير السنة لأنها في معرض المنية من الله علينا بتعليمنا إياها ، ولا عين إلا بما هو حق وصواب ، فتكون الحكمة واجبة الاتباع كالقرآن . ولم يوجب علينا إلا اتباع القرآن والرسول ؛ فتعين أن تكون الحكمة هي ما صدر عن الرسول من أحكام وأقوال في معرض التشريع .

وإذا كان كذلك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أوتي القرآن وشيئاً آخر معه يجب اتباعه فيه ، وقد جاء ذلك مصرحاً به في قوله تعالى في وصف الرسول صلى الله عليه وسلم : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم^(٢) » ومادام اللفظ عاماً فهو شامل لما يحله ويحرمه مما صدره القرآن أو مصدره وحى يوحى الله إليه . وقد روى أبو داود عن المقدم بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه » .

ويدل على ذلك أن الله أوجب على المسلمين اتباع الرسول فيما يأمر وينهى فقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا^(٣) » وقرن طاعة الرسول بطاعته في آيات كثيرة من القرآن فقال : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول لعلمكم ترهعون^(٤) » وحث على الاستجابة لما يدعو ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم^(٥) » واعتبر طاعته طاعة الله واتباعه حياً لله : « من يُطع الرسول فقد أطاع الله^(٦) » وقال أيضاً : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم^(٧) »

(١) الرسالة ص ٧٨ (٢) الأعراف : ١٥٦ (٣) الحشر : ٧
(٤) آل عمران : ١٣٢ (٥) الأنفال : ٢٤ (٦) النساء : ٨٠
(٧) آل عمران : ٣١

وحذر من مخالفة أمره : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ^(١) » بل أشار إلى أن مخالفته كفر : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ^(٢) » ولم يسمح للمؤمنين مطلقاً أن يخالفوا حكمه أو أوامره : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ^(٣) » .

واعتبر من علامات النفاق الإعراض عن تحكيم الرسول في مواطن الخلاف : « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . . . إنما كان قول المؤمنين : إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ^(٤) » ، بل جعل من لوازم الإيمان ألا يذهبوا حين يكونون مع رسول الله دون أن يستأذنوه : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم ^(٥) » قال ابن القيم : فإذا جعل الله من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه ؛ فأولى أن يكون من لوازمه ألا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه . وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه ^(٦) .

ومن هذا كله كان لابد للصحابة من الرجوع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يفسر لهم أحكام القرآن ويبين لهم مشكلاته ويحكم بينهم في المنازعات ويحل لهم الخصومات . وكان الصحابة رضوان الله عليهم يلتزمون حدود أمره ونهيه ويتبعونه في أعماله وعباداته وصلاته إلا ما علموا منه أنه خاص به ، فكانوا يأخذون منه أحكام الصلاة وأركانها وهيئاتها نزولاً عند أمره صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتموني أصلي ^(٧) » يأخذون عنه مناسك الحج وشعائره امتثالاً لأمره أيضاً : « خذوا عني مناسككم ^(٨) » ، وقد يغضب إذا علم أن بعض صحابته لم يتأس به فيما يفعله ، كما روى مالك في الموطأ عن عطاء بن يسار أن رجلاً من الصحابة أرسل امرأته تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حكم تقبيل الصائم لزوجته ، فأخبرتها أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل وهو

(١) النور : ٦٣ . (٢) آل عمران : ٣٢ (٣) الأحزاب : ٣٦

(٤) النور : ٤٧ - ٥٤ . (٥) النور : ٦٢ . (٦) أعلام الموقعين ج ١ ص ٤٨ .

(٧) أخرجه البخاري . (٨) رواه مسلم عن جابر .

صائم فرجعت إلى زوجها فأخبرته فقال : لست مثل رسول الله ، يحل الله لرسوله ما يشاء فبلغ قوله ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغضب وقال : « إني أتقاكم الله وأعلمكم بمحدوده (١) » ، كما غضب حين أمر الصحابة بالخلق والإحلال من الإحرام في صلح الحديبية فلم يفعلوا إذ شق ذلك عليهم ، حتى بادر بنفسه فتحلل فابتدروا يقتدون به .

ولقد بلغ من اقتدائهم به أنهم كانوا يفعلون ما يفعل ويتركون ما يترك ، دون أن يعلموا لذلك سبباً أو يسألوه عن علته وحكمته ؛ فقد أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتماً من ذهب فاتخذ الناس خواتم من ذهب ، ثم نبذه النبي وقال : « إني لن ألبسه أبداً » . فنبذ الناس خواتمهم . وروى القاضي في شرحه للشفاء عن أبي سعيد الخدري — رضي الله عنه — أنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره ، فلما رأى القوم ذلك ألقوا نعالهم فلما قضى صلاته قال : ما حملكم على إلقاءكم نعالكم ؟ قالوا : رأيناك ألقيت نعليك فقال : إن جبريل أخبرني أن فيهما قدرآ . وذكر ابن سعيد في الطبقات أنه صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين من الظهر في مسجده بالمسلمين ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام فاستدار إليه ودار معه المسلمون (٢) . بل بلغ من امتثالهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن فعلوا ذلك حتى في شئون الدنيا ؛ فقد أخرج أبو داود وابن عبد البر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه جاء يوم الجمعة والنبي يخطب فسمعه يقول : اجلسوا ؛ فجلس بيباب المسجد : أي حيث سمع النبي يقول ذلك ، فرآه النبي عليه الصلاة والسلام فقال له : « تعال يا عبد الله بن مسعود » .

وهكذا كان الصحابة مع الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته يعتبرون قوله وفعله وتقريره حكماً شرعياً لا يختلف في ذلك واحد منهم ، ولا يجيز أحدهم لنفسه أن يخالفه كما لا يجيز لنفسه أن يخالف أمر القرآن ، وما كان الصحابة يراجعون رسول الله في أمر إلا إذا كان فعله أو قوله اجتهداً منه في أمر دنيوي ؛ كما في غزوة بدر حين راجعه الحباب بن المنذر في مكان النزول ، أو إذا كان اجتهداً منه في بحث ديني قبل تقرير الله له أو نهيه عنه ؛ كما راجعه عمر في أسرى بدر وصلاح الحديبية ، أو إذا كان غريباً على عقولهم فيناقشونه لمعرفة الحكمة فقط ، أو كانوا يظنون فعله خاصاً به فلا يلزمون أنفسهم به ، أو إذا أمرهم بأمر فظنوا أنه للإباحة وأن غير المأمور به أولى . أما ما عدا ذلك فكان التسلم المطلق والاتباع التام والالتزام الكامل .

(١) أخرجه الشافعي أيضاً في الرسالة ص ٤٠٤ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٧ .

وجوب طاعته بعد وفاته

وكما وجب على الصحابة بأمر الله في القرآن اتباع الرسول وطاعته في حياته وجب عليهم وعلى من بعدهم من المسلمين اتباع سنته بعد وفاته ؛ لأن النصوص التي أوجبت طاعته عامة لم تقيد ذلك بزمن حياته ، ولا بصحابه دون غيرهم ، ولأن العلة جامعة بينهم وبين من بعدهم ، وهي أنهم أتباع لرسول أمر الله باتباعه وطاعته ، ولأن العلة أيضاً جامعة في حياته ووفاته ، إذ كان قوله وحكمه وفعله ناشئاً عن معصوم أمر الله بامتثال أمره ؛ فلا يختلف الحال بين أن يكون حياً ، وبعد وفاته ، وقد أرشد صلى الله عليه وسلم إلى وجوب اتباع سنته حيث يغيب المسلم عنه حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن ، فقال له : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال أقضى بكتاب الله . . قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ . . قال : فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله . . رواه أحمد وأبو داود والترمذي والدارمي والبيهقي في المدخل وابن سعد في الطبقات وابن عبد البر . . كما حث على وجوب العمل بسنته بعد وفاته . وهناك أحاديث كثيرة جداً بلغت حد التواتر المعنوي ، منها ما رواه الحاكم وابن عبد البر عن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي » (١) ورواه أيضاً البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وروى مسلم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مهما أوتيتم من كتاب الله فالعمل به لا عذر لأحد في تركه ، فإن لم يكن في كتاب الله فبسنة نبي ماضية » وروى البخاري والحاكم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل أمي يدخلون الجنة إلا من أبي . . » قالوا : يا رسول الله ومن يأبي ؟ قال : « من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » . وروى أبو عبد الله الحاكم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبة الوداع : « إن الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم ، ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروا ؛ إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وسنة نبيه » وأخرج ابن عبد البر عن عراب بن سارية قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون

ووجلت منها القلوب وقيل : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : « عليكم بالسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة (١) » .

ومن أجل هذا عني الصحابة رضوان الله عليهم بتبليغ السنة لأنها أمانة الرسول عندهم إلى الأجيال المتلاحقة من بعدهم ، وقد رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبليغ العلم عنه إلى من بعده بقوله : « رحم الله امرأ سمع مقالتي فادأها كما سمعها . ورب مبلغ أوعى من سامع (٢) » .

كيف كان الصحابة يتلقون سنة الرسول

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيش بين أصحابه دون أن يكون بينه وبينهم حجاب ؛ فقد كان يخالطهم في المسجد والسوق والبيت والسفر والحضر ، وكانت أفعاله وأقواله محل عناية منهم وتقدير حيث كان صلى الله عليه وسلم محور حياتهم الدينية والدنيوية بعد أن هداهم الله به وأنقذهم من الضلالة وانظلام إلى الهداية والنور . ولقد بلغ من حرصهم على تتبعهم لأقواله وأعماله أن كان بعضهم يتناوبون ملازمة مجلسه يوماً بعد يوم فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحدثنا عنه البخارى بسنده المتصل إليه ، يقول : « كنت أنا وجارلى من الأنصار في بنى أمية ابن زيد وهى من عوالى المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله : ينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته بنجر ذلك اليوم ، وإذا نزل فعل مثل ذلك » وليس هذا إلا دليلاً على نظر الصحابة إلى رسول الله نظرة اتباع واسترشاد برأيه وعمله لما ثبت عندهم من وجوب اتباعه والنزول عند أمره ونهيه . ولهذا كانت القبائل النائية عن المدينة ترسل إليه صلى الله عليه وسلم بعض أفرادها ليتعلموا أحكام الإسلام من رسول الله ، ثم يرجعون إليهم معلمين ومرشدين ، بل كان الصحابى يقطع المسافات الواسعة ليسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حكم شرعى . ثم يرجع لا يلوى على شيء ؛ روى البخارى في صحيحه عن عقبة بن الحارث أنه أخبرته امرأة بأنها أرضعته هو وزوجه فركب من فوره — وكان بمكة — قاصداً المدينة حتى

(١) جامع بيان العلم ج ٢ ص ١٨٢ وأخرجه الترمذى أيضاً وأبو داود والإمام أحمد وابن ماجه . وقال الحافظ أبو نعيم : هو حديث جيد في صحيح حديث الشاميين .

(٢) جامع بيان العلم ج ١ ص ٣٩ ورواه ابن حبان في صحيحه وأبو داود والترمذى وحسنه النسائى وابن ماجه والبيهقى بتقديم وتأخير وزيادة عند بعضهم دون البعض .

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن حكم الله فيمن تزوج امرأة لا يعلم أنها أخته من الرضاع ثم أخبرته بذلك من أرضعتهما فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « كيف وقد قيل » ففارق زوجته لوقته فتزوجت بغيره ، وكان من عادتهم أن يسألوا زوجات النبي صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بشئون الرجل مع زوجته لعلهن بأحوال رسول الله العائلية الخاصة كما قدمنا من قصة الصحابي الذي أرسل امرأته تسأل عن تقبيل الصائم لزوجته ، فأخبرتها أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل وهو صائم ، كما كانت النساء تذهب إلى زوجات النبي فأحيانا يسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشأن السؤال عنه من أمورهن ، فإذا كان هناك ما يمنع من التصريح للمرأة بالحكم الشرعي أمر إحدى زوجاته أن تفهمها إياه : كما جاء أن امرأة سألت النبي صلى الله عليه وسلم كيف تتطهر من الحيض فقال عليه الصلاة والسلام : « خذي قرصة ممسكة فتوضئي بها » فقالت : يا رسول الله كيف أتوضأ بها فأعاد كلامه السابق عليها فلم تفهم ، وأشار إلى عائشة أن تفهمها ما يريد فأفهمتها المراد ؛ وهو أن تأخذ قطعة قطن نظيفة فتضعها في مكان الدم فإن خرجت بيضاء كان ذلك علامة طهرها (١) .

غير أن الصحابة لم يكونوا جميعاً على مبلغ واحد من العلم بأحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله ؛ فقد كان منهم الحضري والبدوي ، ومنهم التاجر والصانع والمنقطع للعبادة الذي لا يجد عملاً ، ومنهم المقيم في المدينة ، ومنهم المكثر في الغياب عنها . ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس للتعليم مجلساً عاماً يجتمع إليه فيه الصحابة كلهم إلا أحيانا نادرة وإلا أيام الجمعة والعيدين وفي الوقت بعد الوقت . روى البخاري عن ابن مسعود ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة تلو الموعظة في الأيام كراهة السامة علينا . ومن هنا يقول مسروق ؛ لقد جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالآخاذاً (٢) ؛ فالآخذ يروي الرجل ، والآخذ يروي الرجلين ، والآخذ يروي العشرة ، والآخذ يروي المائة ، والآخذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم . وطبيعي أن يكون أكثر الصحابة علماء بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم هم الذين كانوا أسبقهم إسلاماً كالخلفاء الأربعة وعبد الله بن مسعود ، أو أكثرهم ملازمة له كأبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم .

« يتبع »

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي عن عائشة .

(٢) الآخذ : القدير .

المثل الأعظم للحياة السعيدة في الإسلام

عفة وإيثار ، ينهيه إلى تعاونه كريم

الأستاذ السيد محب الدين الخطيب

ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل للحياة السعيدة فيما رواه الإمام مسلم في صحيحه (١٣٣ : ٥) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اشترى رجل من رجل عقاراً له ، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب . فقال للذي اشترى العقار منه :

— خذ ذهبك عني ، إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب .

فقال : الآخر : إنما بعثك الأرض وما فيها

قال صلى الله عليه وسلم : فتجاكما إلى رجل ، فقال الذي تجاكما إليه :

— ألكما ولد ؟

فقال أحدهما : لى غلام .

وقال الآخر : لى جارية .

فقال الحكم : « أنكحوا الغلام الجارية ، وأنفقوا على أنفسكما منه ، واتصدقا »

إن السعادة — في المثل الذي ضربه رسول الإنسانية صلى الله عليه وسلم لأمنه — ليست في اكتشاف هذا الكنز الذهبي ، فإن الذين يكتشفون الكنوز الذهبية في باطن الأرض ، أو في جيوب الناس ، كثير عددهم . وقد يصيبون من ورائها الثروة جامدة فلا تبضُّ بقطرة خير ، أو سائلة فتسبيح فلا يبقى منها لصاحبها ولا لغيره أيُّ خير . بل السعادة في هذا المثل الأعلى هي في اكتشاف معادن الخير مخبئة في نفوس أصحابها .

إن مشترى العقار وبائعه اختلفا ، وتنازعا ، وتحاكما إلى ثالث . ولم يكن الدافع لهما على الاختلاف والنزاع هياج شهوة النفس لاخطاف هذا المال الرخيص الذي فاجأهما بلا كد ولا تعب ، بل لأجل أن يعنى كل واحد منهما نفسه من مال لم يكن يعلم أنه له وأنه صار إليه بسعيه ، ومن حله . فكان كل منهما حريصاً على أن يخرج من هذه الورطة المادية بسلامة أخلاقهما ، وراحة نفسيهما . وهذا أغلى ما كان يحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأُمَّته التي يحبها ، ويحب لها خير ما يعلمه من أسباب السعادة .

السعادة حامية لاتجد الأنس والدفء والهناء إلا في سكينه الرضا . وسكينه الرضا يستحيل وجودها في نفوس صنف من الناس شغفت قلوبهم بالرغبة في التزيد من المال الكثير وهم في هلع متواصل لإحراز قصب السبق بين الأقران من قوارين هذا المضمار . فمهما أثرى الواحد منهم فإن حرصه على الإزدياد من الثروة دليل على اعتقاده — بينه وبين نفسه — بأن ما هو فيه لم ينله السعادة بعد . لأنه ليس هو أغنى أغنياء الدنيا بلا استثناء ، وما دام في الدنيا من هو أغنى منه فهو أفقر من ذلك الأغنى ، ويتألم لمضاضة هذا الفقر وإن كان نسيئاً . ومن العجيب أن المقدار الكافي لسد مطالب الحياة الهنيئة متوفر له ولألوف وملايين ممن هم أقل غنى منه ، وما زاد عن ذلك فهو عبء على صاحبه للمحافظة عليه ، وهو أبدأ في عناء التفكير والسعى لتشجيعه والزيادة منه . وكان يكون معقولاً لو أن هذه الزيادة المطلوب استمرارها بعد استيفاء مطالب الحياة ترصد لأعمال نبيلة ينتفع بها المجتمع ، وتخفف من ضرورات الآخرين ، وتعين على تكوين الأمة الصالحة السعيدة ، وتستثمر بها خيرات الطبيعة وينابيع ثروة الوطن أو يبذل منها لتقويم نظام المجتمع وإمضائه في أساليب عادلة يرضى الله ويسعد الناس ويهض بمستوى الإنسانية . والشرط الأساسي لذلك تنزيه رؤوس الأموال الضخمة عن قذارة الإرباء من استغلال ضرورات الناس أو التحكم بأقوات الجماهير وكسائهم وحاجياتهم ، ومن تمام ذلك الشرط تزكية الثروة بتنظيم الإحسان وتيسير العمل الشريف لطالبيه .

وما دام القدر الكافي للعيش الهنيء ، هو قدر مشترك ميسور لجميع أفراد الطبقات الوسطى فضلاً عن التي فوقها ، فلا شك أن في تناول أيديهم جميعاً أن يكونوا سعداء

إذا فهموا أن المعنى الصحيح للفقى هو استغناء صاحبه عن الحاجة إلى الآخرين في ضروريات العيش ، وأن يرضى لشخصه وليته بهذا المقدار ، وذلك باعتماد القصد والقناعة والاعتدال في أسلوب الحياة ، والتحرُّر من كل ما يمكن الاستغناء عنه كاللذخين وسائر ما لأفائدة له في الغذاء والكساء والسكن المريح . والإسلام يدور مع معاني القصد والقناعة والاعتدال في جميع الأهداف التي يرمى إليها . وقواعد الإسلام وسننه لا تنكر أن المال قوة ، وأن من القوة للإسلام أن يكون المسلمون من أصحاب الثروات ، وكان في الصحابة — كعبد الرحمن بن عوف — أصحاب ملايين كثيرة جداً ، غير أن المسلم ينظر إلى الثروة نظرة مزدوجة ، فباحدى النظرتين يقيم معيشته الشخصية والبيتية على دعائم القصد والقناعة والاعتدال حتى لو صار أغنى من عبد الرحمن بن عوف ، أو دخل تحت تصرفه كل ما كان يحمل إلى عمر بن الخطاب من جباية العراق ومصر والشام وشمال إفريقية وأنحاء جزيرة العرب ومملكة كسرى ، فهذه الجبال من الأموال لا تستطيع أن تحوّل المسلم عن مفتاح إسلامه — وهو القصد والقناعة والاعتدال — لأن له نظرة أخرى إلى المال يعتبر بها ما زاد منه عن حاجته الضرورية أنه (أمانة) لله عنده ، سواء كان مالا عاما كالذي كان يحمل إلى عمر ، أو مالا خاصا كالذي كان يكسبه عبد الرحمن بن عوف من متاجره الواسعة . وهو يرى أن الله متمنحه في كيفية تصرفه بهذا المال على ما تكون به القوة للإسلام ، والسعادة لأهله ، والمعونة للمسلمين على ما يصلح أحوالهم ، ومن ذلك انتشال الذين كبا بهم جواد الحياة ليمكنوا من استئناف السير في طريق الحياة . ويذكر التاريخ أن غنى من أغنياء المسلمين جعل في أمواله وقفاً تصرف غلته لجبر كسر ما يكسر بأيدي الخدم وغيرهم من الأواني وهم بين السوق والمنزل ، فإذا سقط من يد خادمة إناء فيه سمن أو زيت أو لبن أسرع إليها وكيل ذلك الوقف في نفس السوق فصرف لها ثمن الإناء المكسور وما كان فيه . ومن الأوقاف ما كان موقوفاً لإقراض المال قرصاً حسناً ، وأمثال هذه الوجوه التي تهوّن على المعسرين وسائل الحياة . وأغنياء المسلمين الذين ينظرون للمال هذه النظرة المزدوجة ، ولا يخرجون في معيشتهم الشخصية عن دائرة القصد والعفة والاعتدال ، ويحسنون استعمال باقي (الأمانة) التي تحت أيديهم في سد حاجة المجتمع الإسلامي من النواحي التي هو أشد حاجة إليها ، هؤلاء الأغنياء لا يمكن أن تنحط

نفوسهم إلى دركات الحسة التي تنحط إليها نفوس الذين يربون أموالهم من استغلال ضرورات الناس ، ومن التحكم بأقوات الجماهير . بل هم — على العكس من ذلك — تسمو نفوسهم إلى لذات أخرى تقوم على تنظيم الإحسان وبسط جناح رحمته على مرافق الأمة وأيدى فقرائها المفتقرة إلى فتح أبواب العمل لهم حتى لا يبقى في المجتمع الإسلامي والإنساني ذو فاقة ولا مغلوب على أمره .

كما أن هدف الدولة الإسلامية لا ينحصر في وطن محدود أو أمة ضيقة النطاق ، كذلك المسلم إذا كان ذا غنى أو جاه أو قوة لا يحصر دائرة غناه أو جاهه أو قوته في نفسه أو بيته ، بل يعتبر الأمة كلها والإنسانية بجماعاتها بيتاً له أو كنفس واحدة تقوم منه مقام نفسه . فإذا سره أن يزداد غنى وجاهاً وقوة فإن نفسه تسمو عن أن تكون دائرة فيضها محصورة في نفسه وبيته وخاصته ، ويرى أنه أكبر من ذلك ، وقد تبلغ به عظمة النفس إلى أن يرى المجتمع كله أسرة كأسرته الصغيرة ، بل كنفسه التي يحيا بها ، ويسجل في كتاب الله وقائع حسناتها .

إن الرجلين اللذين ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل بهما للتعامل الصالح في الحياة — على ما كان يستحسنه صلى الله عليه وسلم ويقع من قلبه الشريف موقع الرضا — كانا من الطبقة المتوسطة التي يملك الواحد من أهلها عقاراً ويستطيع الاستغناء عنه بالبيع ، أو يملك من النقود ما يستطيع أن يشتري به عقاراً . فالرجلان من أهل « الغنى » بالمعنى الذي يستغنى به أهله عن الحاجة إلى الآخرين . والظاهر من المثل النبوي المضروب في هذا الحديث الشريف المروي في صحيح مسلم أن الرجلين فهما الغنى بهذا المعنى ، وارتاحت نفسيهما إلى السعادة بما هما عليه ، والقناعة بعد ذلك بما يرزقهما الله من السعي اللذيذ للكسب الحلال ، فصار ذلك خلقاً لهما وسجية فيهما ، وقد حرصا على الاحتفاظ بهذا الخلق . فلما فوجئا بالكنز الذهبي في الجرة التي عثر عليها شاري العقار في أرض العقار ، رأى شاري العقار أن هذا الكنز ليس من كسبه ، وأنه لم يكن داخل في الشراء الحلال الذي انتقلت به ملكية العقار إليه . وأدرك بسليقته التي اكتسبها من تربيته الخلقية أن هذا الربح المجهول يتنافى مع طريقته التي ارتضاها لنفسه في العيش الهني ، ولعلها ستكون مبدأ تحول له عن طريقته السعيدة إلى طريقة جديدة تجر عليه عذاب الضمير ، وتغير على بنيته مجرى حياتهم . فأسرع إلى الذي

اشترى منه العقار وقال له : إن هذا الذهب ظهر في أرض العقار الذي اشتريته منك ، وأنا اشتريت منك العقار ولم أشت منك الذهب ، فتفضل وخذ ذهبك عني . ولما كان بائع العقار هو أيضاً من الناس القليلين الذين اكتشفوا كنز السعادة في قلوبهم ، وعرفوا قيمته في نفوسهم ، واغبطوا به في تجارب حياتهم ، وساروا في معيشتهم على مقتضى ذلك ، فإن هذا الرجل كان أحجى وأكثر يقظة من أن يتورط في الخطأ ، ويزعج حياته الهنيئة بشيء جديد لم يكن في حسبانته ، ولا هو اكتسبه بسعيه النبيل اللذيذ . لذلك أبى أن يأخذ جرة الذهب ، وقال لصاحبه : إني كنت أعلم أني بعتك العقار بما فيه ، وأنا خالي الدهن من الجرة وما فيها ، وفي مدة تصرفي بالعقار لم أكن أعلم بجرة الذهب ، ولا خطر على بالي أن لي شيئاً من ذلك . فهي منتقلة إليك — مع العقار — من المالك الأول الذي كان قبلي ، وأنا لا شأن لي بأمر هو بينك وبين المالك الأول .

ووقف هذان الرجلان السعيان الراضيان عن الله ، والمرضى عنهما من الله ، أمام ورطة تهدد كلا منهما بتغيير مجرى حياته . ثم رأيا أن يجربا طريقة التحكيم للخروج من هذه الورطة ، فلجآ إلى رجل حكيم من أمثال أولئك الذين اعتادت جزيرة العرب — ينبوع الحق والخير — أن تلجأ إلى عقولهم الراجحة ومداركهم البعيدة الغور للخروج من المواقف الحرجة في حياة الأفراد أو حياة الجماعات . وأول ما خطر على بال هذا الحكم الحكيم أن يجمع بين هذين الرجلين المتشابهين في أخلاقهما ، وطهارتهما ، وحمسهما فهما للحياة السعيدة ، ليتعاونوا — هما وذريتهما من بعدهما — على المضى في هذا الطريق الهني من حياة الدنيا ، فسألها : هل لهما من ولد ؟ واتفق أن كان لأحدهما فتى وللاخر فتاة ، فحكم هذا الرجل العاقل بأن يتزوج الفتى من الفتاة ، وأن يكون الكنز للبيتين معا ؛ لاستحالة الرجوع بجرة الذهب إلى أصحاب لها قدماء لا شك أنهم مجهولون ، ولا شك أيضاً في أنهم ماتوا ، ولو أنهم كانوا أحياء لكانت معرفتهم بمجرتهم الذهبية تحملهم على منعها من الوصول إلى أيدي غيرهم قبل أن يخرج العقار من أيديهم . واشترط الحكم على المتبايعين إذا تصاهرا أن يمضيا في طريقتهما في النفقة على البيتين بأسلوبهما الذي كانا عليه ، وأن يجعلوا من فضل ذلك صدقة جارية تخفف من شقاء المجتمع وتساهم في النهوض بمستوى الإنسانية إلى المقام الذي يليق بها .

هذه الأخلاق ، وهذا الفهم الحكيم لمعنى « الغنى » ، هو المثل الأعلى في الإسلام للحياة السعيدة ، وهو كما نرى قائم على أساس العفة والإيثار مع الفهم السليم لمعنى الغنى ، ويؤدى بطبيعة نظامه إلى التعاون الكريم المبنى في المجتمع .

وقبل أن أودع قارىء هذا الفصل أحب أن ألاحظ له أن الإمام مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله أدخل هذا الحديث النبوى الشريف في (كتاب الأفضية) من صحيحه لأنه ذهب إلى أن هذا المثل إنما ضربه النبي صلى الله عليه وسلم للأحكام الإسلامية في التشريع الاجتماعى ، ولم يضربه لمعانى الزهد والتهديب الأدبى . وقد جعل له في كتاب الأفضية من صحيح مسلم عنوان خاص به وهو « باب استجباب إصلاح الحاكم بين الخصمين » ، وما أسعد أمة يكون نخاصم المتخاصمين من أبنائها أمام الحاكم والمحاكم على « إنقاذ » الأخلاق من « تكالب المال » على نهشها والتهامها . إن هذا صنيع أهل ملة فهموا معنى السعادة ، وأقاموا معالم الطريق لمن يريد أن يصل إليها . وإنما انحط المسلمون ورخصت قيم رجالاتهم لما هانت عليهم أخلاقهم هلعاً منهم على التزيُّد من النقود ، فضحوا لأجلها ببعض سجايا النفس الإسلامية وكريم معادنها ولما خسروا ما خسروا من سجايا نفوسهم خسروا أكثر من ذلك من صميم سعادتهم وسيادتهم . أعيذوا أيها المسلمون إلى نفوسكم قيمها ، لنهض بكم — أو على الأقل بأبنائكم — إلى مستوى خلفاء الله في كائناته .

الدين

لا ثقة لى بمتخلق لا دين له ، فإن الخلق يصله بحظ نفسه أكثر مما يصله بواجبات الناس ، ولا بفيلسوف ملحد لأن الفلسفة تمزجه بالمادة أكثر مما تمزجه بالإنسانية ، ولا بمصلح ينسلخ من الدين لأن إصلاحه صور من غرور . . .

مصطفى صادق الرافعى

تاريخ بلا إيمان

للاستاذ محمود محمد شاكر

أنا أعلمُ أني استفتحتُ موضوعاً ، لو شئتُ أن أستهلك فيه تلك الذبالة الخفاقة المترددة من بقية عمري ، لما استطعتُ أن أوفيه حقه من البيان ؛ فإن مادة التاريخ كلها تستقبلني بقضها وقضيضها ، وتتذأبُ بين يدي أصناف الطبائع البشرية التي فطر الله الناسَ عليها — على ما علمَ هو سبحانه — من اختلاف نفوسهم وساعاتهم وأيامهم وأجيالهم وعصورهم . وطبيعةُ رجلٍ واحدٍ حتى ، تعرفه وتعاشره من ولد أدينا آدم صلى الله عليه ، مشكلةٌ تعجزُ الفارسُ البصيرُ أن يهتدي إلى ما يختبئ فيها من التناقض والتخفى والتسرُّب . فما ظنُّك بإنسان لم يستبق لك الله منه ما تعرفه به إلا نبذاً يسيراً من أخبارُ تروى ، لا تستغرقُ سوى صفحة أو صفحتين ، ولقد قضى في الدنيا عمراً من قبلُ ، لو هو قيتد وكتب بجميع ما أحدث فيه ، لما وسعته المجلدات الضخمة ؟ فانظر إذن أين ينتهي بك توهمك ، وأنت تتحرَّى أن تتعرفَ خبء آلاف مؤلفة من مثل هذا الإنسان ، عاشت أعماراً طوالاً وقصاراً في طوايا الغيب الماضي ، استنفدتها بأعمالها وخواطرها ساعة بعد ساعة ، ويوما بعد يوم ، وعاماً بعد عام في تاريخ متفادٍ متطاوِلٍ يمتدُّ في غيب الماضي سبعين سنة ، وثلاثمائة سنة ، وألف سنة ، أو تزيد 11 هذا تصوُّرٌ مشبَّط للفكر ، ولكنه ضرورة لا غنى عنها للمؤرخ ، وهو أشد ضرورة للمؤرخ يكتب تاريخ أهل الإسلام ، ثم هو أفدح ضرورة لأنه تاريخ — ما علمتُ — يختلف اختلافاً مبيناً صارخاً عن كل تاريخ عهده البشر في سائر تواريخهم ، ثم هو الضرورة الراسخة لمن ورَّط نفسه في تأريخ أهل القرون الأولى من الإسلام . بيد أن المؤرخ المسلم وحده هو القادر على أن يكتب تاريخ أهل الإسلام — وغيرهم إن شاء — على وجه يمكن أن يوصف بالنبل والفهم والصدق والأمانة والثقة إذا هو حرصَ على أن يتأدب بما أدبه به ربه من أخلاق تلزمه في معاملته ، كما تصحبه في تفكيره وبحثه ، وإذا هو مكن في قلبه ونفسه الطاعة لما تركه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أدب كان يؤدب به أصحابه بمسكا يحجزهم أن : هلموا عن النار !

وعلمُ ضمائر خلق الله علم قد استأثر به ربنا سبحانه علامُ الغيوب . ومع ذلك ، فلست أغالى شيئاً إذا زعمتُ لك أن أكثر من ثلاثة أرباع تاريخ الدنيا ، لم يجمع ولم يتكوّن ولم يصبح عملاً في الأرض إلا من خفيات هذه الضمائر ، ونحن حين نرى نتائج أعمال البشر ، والى نزعمها أو نسحبها تاريخاً ، لا نرى إلا أثراً شاحباً متهافتاً مما استسرّ في جوانح خلق الله . وهذه الآثار ربما تشابهت عندنا تشابهاً غريباً ، مع أن الأسباب التي أحدثتها تختلف في حقيقتها وطبيعتها كل الاختلاف . فإذا خفيت الأسباب وتشابهت الآثار ، فإجراء حكم واحد على هذه الآثار المتشابهة خطئٌ وسوء رأي ، وإعظامٌ في الغربة على الناس الماضين ، وإغراقٌ في التزليل بالناس الحاضرين . وأنا لا أحييك في معرفة مصداق ما أقول إلى التاريخ الماضي ، بل إلى ما تشهدهُ بعينيك ، وتسمعهُ بأذنيك ، وتدركهُ بصيرتك وفكرتك من أحوال الناس الذين تعاشر ، والتاريخ الذي يصنع الآن بمرأى منك ومسمع ، ساعة بعد ساعة ، ويوماً بعد يوم . فانظر كيف يحكمُ الناس بعضهم على بعض ، وكيف يفسر بعضهم أعمالَ بعض ، فإذا صح هذا عندك وتأمّلتَه ، علمتَ لم أؤثر أن أدعوك إلى تصوّر أزمنة التاريخ وخطائفه ، تصوّراً طويلاً عريضاً متراحباً ، يكاد يشبط الفكر الإنساني عن العناية به والإلحاح عليه

وهذا الأصلُ الذي يكادُ يبلغُ مبلغَ البديهيِّ ، أصلٌ متروكٌ في التاريخ الحديث . وذلك لأن حضارة هذا القرن العشرين المتحدرة من عصور المدنية الأوروبية الوثنية والمسيحية ، قد انبثقت من ضرورات اجتماعية وأخلاقية ودينية ، لا يمكنُ أن تدع لمثل هذا الأصل مكاناً في التصوّر ، إلا شعاعاً ميتَ النور ، ربما انبث في بعض ما يؤلفون ، محاطاً بظلمات شديدة من الجرأة والتهمج والافتراء والرجم بالغيب ، والمبالغة في اعتداد المؤرخ منهم بنفسه ، والإفراط في ثقته بقدره عقله ، والغلو في تحكيم ما يدّعيه وما يفرضه على مادّة التاريخ ورواياته ، بغير بينة ولا حُجة .

ثم زاد هذا كله بشاعة حين نجمت طائفة المستشرقين ، بأحقادها وضغائنها وسفاهة ألسنتها وسرورها ، وبدأوا يكتبون تاريخ الإسلام على أصولهم الفاسدة ، ثم قام في الشرق العربي والإسلامي طائفة أخرى من أصحاب الأهواء ، من بين مسلم وغير مسلم ، فاتبعوهم وناصروهم ، وأذاعوا بعلهم ، وأشادوا بمقدرتهم في التقصيِّ وكال مناهجهم في البحث ، فنقلوا إلى العربية ثمرة هذه الأحقاد والضغائن ، في كتب ألفوها ، ونشروها وطارت بين عامة المثقفين ، يتلقفها الإعجاب بها ، والافتتانُ بأسلوب قصصها وحكايتها ونحيقها

وجاء هذا مع غلبة الحضارة المسيحية الأوربية حين تم لها سلطانها في أرض الشرق والإسلام ، بالغزو الحربي والسياسي والأدبي والعلمي والاجتماعي والأخلاقي والثقافي عامة ، فعشش في القلوب ثم باض ثم فرّخ كما يقول الجاحظ . وانتهى الأمر بالعرب والمسلمين أخيراً إلى أن يكون مصدر ثقافتهم وفكرهم عدواً لهم من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون . تجد ذلك في كتبهم ومجلاتهم ، وصحفهم ، ومدارسهم ومعاهدهم ، وفي معادل دينهم كالأزهر وغيره . فساد من يومئذ الافتراء الكاذب سيادة تامة في الحياة العقلية والأدبية ، وأصبح تاريخ الإسلام وأدبه وعلمه ، منظوراً إليه من صميم أهله المتحمسين بعين تبغض ، وقلب يعرض ، ونفس تزور عنه ، ولم ينبج من غائلة هذا الفساد إلا من عصم الله ، وهي قلة قليلة هي اليوم في طريقها إلى الفناء ، إلى الانقراض ، إلى مصارع الأولين من أهل العلم والفقه والمعرفة .

من أجل ذلك البلاء المستفيض في حياتنا ، وفي عقولنا ، وفي دراستنا أقول دائماً : إنه لا يغرنى من أحد دينه ولا تقواه ولا علمه ولا جهاده ولا فضله ولا عقله ، إذا لم يكن ذلك كله نابعاً من كتاب الله ، ومن الحياة الإسلامية المتهدية بهدى الله ورسوله ، غير مختلط ما استطاع ، بذلك الوباء الجائح الذي فرض علينا في صورة مدنية أو حضارة أو علم أو ثقافة . ومن أجل ذلك لم أزل أثور عند كل بشق ينبثق من هذا الشر ، في شأن أبي بكر رضى الله عنه قديماً ، وفي شأن عثمان رضى الله عنه ، وفي شأن صحابة رسول الله في أيام فتنة عثمان حديثاً ؛ لأن استشرء ضغائن المستشرقين ، واستفحال منهج الحضارة الأوربية في الجرأة على عباد الله بالكذب المتهجم ، وادعاء كل مدع ممن يحاول أن يكتب في التاريخ أن يقول : إن هذا هو حق الأسلوب التاريخي . كل ذلك قد مس النفوس والعقول ، وأوقع فيها معاني لم تسكن لتقع فيها ، لو أن حضارة الإسلام وأخلاقه وآدابه وما ينبع من هذه الأخلاق والآداب من أساليب العلم والبحث والفكر بقيت هي السائدة في حياتنا الأدبية والعقلية والعلمية والاجتماعية

إن المؤرخين الأوربيين ، ثم المستشرقين خاصة ، ثم من لف لفهم من المتخطفين من فئات موائدهم من أهل هذا الشرق العربي والإسلامي يزعمون أن للتاريخ منهاجاً أو منهاجين أو ثلاثة أو عشرة ، هي كل ما يستطيع الباحث أن يعتمد عليه في دراسة كل تاريخ وأنا أحب أن أزعم أيضاً أن ليس فيها منهاج واحد يصلح لدراسة تاريخ الإسلام ، بل أشك كل الشك في صلاحه لدراسة تاريخ أى الناس كان

من غير المسلمين . وإذا احتاج المسلمون إلى إعادة كتابة تاريخهم ، فحاجتهم لا تنتهى — أو ينبغي ألا تنتهى — إلى الشعور بفقرهم إلى إمام يقتدون به مقلدين ، ثم يكون هذا الإمامُ منهجاً فاسداً نشأ في تربة غريبة ، ودعت إلى نشأته أسباب اجتماعية محدودة ، وعلل أخلاقية وعقلية معينة . كلا ، فإن تحكيم مثل هذا المنهج ، وفي هذا العصر الذى لوثت ثقافته منابع الفكر كلها وكدرتها ، لا يؤدى إلا إلى شيء واحد : هو إفسادُ تاريخ أهل الإسلام إفساداً يشقُّ إصلاحه . وفي الكتب الحديثة التى كتبها مسلمون متحمسون في هذا العصر برهانٌ لمن تطلب البرهان ، على مقدار ما ينجمُ من الضرر والفساد والعبث والتبديل والتحريف والاقتراء ، والجهل — إن شئت — إذا انطلق كل حامل قلم ، ليكتب تاريخ أهل الإسلام ، على مثل هذه المناهج ، وبمثل هذا القصور عن معرفة الحقائق الصريحة في الحياة الإسلامية ، وبمثل هذا التقليد البشع للمستشرقين وأكثرهم من اليهود ، وبمثل هذا الإغمال الشديد للفرق بين الأصول التى قامت عليها حضارة هذا الإسلام وانفردت بها دون سائر الحضارات ، والأصول التى قامت عليها حضارة سائر أمم الأرض ؛ وتناولها المؤرخون بالبحث والتنقيب والكتابة والتصوير . وإذا كان الهاتف الذى هتف بالناس أن : « افهموا الإسلام فهماً جديداً » قذف بالمسلمين وبعقولهم وأهوائهم في متاهة لا يعلم غايتها إلا الله وحده ، فإنه حين هتف أيضاً هم أن : « افهموا تاريخ الإسلام فهماً جديداً » ، أو شك كما قلتُ أن يهوى بتاريخ أهل الإسلام وأئمتهم في ظلمات مطبقة لا يطلع على خبئها إلا عالم غيب السموات والأرض . وقد مارستُ دعوى من اتبعوا هذا الهاتف سنين ، ولا أزال أمارسها وأتبعها ، فأدركتُ أن شيمة هذا العصر الوبى ، هى الغالبة دائماً على أصحاب هذا الهاتف : من تحطيم ، وتدمير ، وغلو ، وجرأة ، وإصرار على التحكم ، وضراوة في التهجم ، وإغراق في الرجم بالغيب ، وإفراط في ثقة المرء بقدره عقله واعتداده بنفسه . ومن أجل ذلك كرهتُ كلمة التجديد هذه ، وأنفتُ لنفسي أن أثق بالألفاظ التى يلقها كثير من المتحمسين للإسلام ، إذا لم أجد عمل أحدهم وتطبيقه وسيرته ونهجه ، تؤيد دائماً دلالة هذه الألفاظ على معانيها . هذا ، إذا صحَّ عندي أن منبع هذه الألفاظ هو دين الله نفسه ، كما نزل في كتابه ، بسياقه وبيانه وعربيته غير مؤوَّل ولا مصروف عن وجهه ، وكما أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم في سيرته وعمله وتأديبه وحديثه ، وكما جرت به سيرة أصحاب رسول الله ، الذين أقاموا دين الله في الأرض ، ولزموا طاعة الله ورسوله ، وارتضاهم ربهم خلفاء في أرضه ، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها .

ولعلك تراني شديد الحرص على أن أجعل أخلاق الإسلام وآدابه وسننه وسائر ما يكون به الإسلام إسلاماً ، هي الأصل الذي لا غنى عنه لمن يتعمق لكتابة تاريخ أهل الإسلام . وتراني أكاد أقطع بأن هذا هو المنهج لا غير . من مناهج البحث ، كما تعرف مناهج البحث في العصر الحديث . وأقول لك : نعم ، ونعمة عين ، فأنا أنكر أن يكون في الدنيا شيء يسمى منهاجاً للبحث والفكر أو أسلوباً أو طريقة إلا وهو مُنبثق من سر النفس الإنسانية ، من تصوّراتها ومآلفها ، من عيشتها وعهدها بما يحيط بها ، من أسباب تصرّفها في خواطرها ، من دوافع نقدها للأشياء ، وتقديرها ، من استجسانها واستقباحتها ، من دواعي حبها وبغضها ، من كلّ ما تعيش به في دخليتها ، وتعاشر به ما يتصل بها ، بل إن العقل المجرد نفسه ، لا يستطيع أن يدرك الحق وحده ، ولا أن يستقل بمعرفته وبالبيان عنه ، ولا أن يفرد بشيء يسمى تفكيراً ، متجلياً عن جاراته من الطبائع والفرائز والسلائق ومن العادات والآداب ، ومما تسخطه النفس أو تحمده ، ومما تحبه أو تكرهه ، بل إن أكثر علم الناس في هذه الدنيا لا ينشق لهم طريقة ، إلا بما استقرّ فيهم من أخلاق وآداب وسنن متبعة ، بل إن اختلاف الأخلاق والآداب والسنن ، أصل أصيل في اختلاف العلم ، ومفهوم العلم ، وطبيعة العلم ، بل إن الحضارات المتباينة ، بعلمها وفنونها وصناعاتها وآدابها ، لم تتباين كل هذا التباين ، إلا من جراء تباين الآداب والأخلاق والسنن في كل حضارة . فإذا أنا حرصتُ على أن أجعل أخلاق الإسلام وآدابه وسننه هي الأصل الذي لا ينفك منه مؤرخ الإسلام ، فذلك لأن المنهج الذي يتبعه الباحث لا يمكن إلا أن يكون صدى لما تقوم به حياته التي يعانها في دخيلة نفسه بالليل والنهار ، وفي السر والعلن ، وفي المنشط والمكروه ، وفي الرضا والغضب .

والتاريخ ، في زماننا ، ليس علماً على الحقيقة ، كما ترى في الكيمياء والحساب والهندسة ، بل هو تفسير لحوادث خفية الأسباب ، مطمورة الجذور ، متعددة الدوافع ، كثيرة المحامل والوجوه ، متعلقة كل التعلق بحياة كل فرد عاش في الفترة التي يريد أن تؤرخها ، شديدة الخضوع لعوامل لا يحصيها إلا الله وحده سبحانه . فما كان هذا شأنه وتعقيد ، واختلاف أسبابه ، وخفاء علله ودوافعه ، فإنّ منهاج دراسته لا يقوم أبداً على مقاييس لا تختل كمقاييس الرياضة أو التجربة ؛ بل هو يلقى المؤرخ بقدر هائل من الطبائع الإنسانية المتألفة والمتنافرة ، والمتآخية والمتناحرة ، والمتناقضة ، والظاهرة والغامضة ، فلا معدى له عن لقائها بقدر مثله من نفس تراحب إدراكها للطبائع والسجاياء والأخلاق . وما دام الأمر قد انتقل من المقاييس المحددة

الضابطة ، إلى إدراك الطبائع الإنسانية البعيدة الغور ، الخفية السر ، المتباينة الصور ، بقدر تباين صور البشر وألوانهم وأشكالهم وألسنتهم وأصواتهم وأهوائهم ونوازعهم ؛ فقد انتقل المنهاج كله من التحديد الضابط إلى التشتت المفرع الذي لا تدري ماذا تأخذ منه أو تدع . فلا مناص إذن لأى عاقل بعض العقل ، من الرجوع إلى شيء لا يختلف ، يقوم على أصل صحيح من هذا التقدير الخفيف لاختلاف الطبائع ، ومهما التمس الإنسان شيئاً يقي بضبط هذا القدر من التباين المتفجر ، فهو خليقٌ لا يحده . فإذا أثبتته العجز عنه فأثر أن يغفله لمجرد شهوة يشتهيها ، وهي أن يكتب للناس ويؤرخ لهم ، فهو عندئذ خليقٌ أن يضل في تقديره ، وفي تصويره ، وفي حكمه ، وصار كل ما يأتى به رجاء وظنوناً وأهواءً وعبثاً وافتراءً وتكذباً واقترافاً لما ليس له به علم ، وهذا الذى كان .

وليس على الأرض العاقلة شيء يمكن أن يعد ميزاناً عادلاً لهذه الطبائع البشرية التى وصفنا ، إلا ميزانٌ واحدٌ لا غير ، هو الذى أنزله رب العالمين إذ يقول : « لقد أرسلنا رُسُلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » . واهتداء البشر بالكتاب ، وفقهم لمعانيه ، واتخاذهم الميزان الذى أنزله الله على أنبيائه ورُسُله ، أصلاً يتعايشون به فى حياتهم ويتحاكمون إليه فى النظر والفكر ، وفى العلم والفقه ، وفى المعرفة والتقدير ، وفى القياس والاستنباط ، هو الوسيلة الوحيدة التى تضمن لصاحب الرأى أن يكون رأيه قريباً من الحق ، ويكون منهاجه قادراً بعض القدرة على لقاء هذه الكثرة الجياشة من الاختلاف فإن منزل الميزان للناس ليقوموا بالقسط ، هو الذى خلق الناس مختلفين ، وجعل لهم هذا الميزان بإزاء هذا الاختلاط

ولم يبق على الأرض العاقلة تنزيلٌ لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلعه ، سوى كتاب واحد لا غير ، هو كتاب الله تبارك اسمه ، ثم بيان هذا الكتاب ، وهو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فهما بجميع ما نزل فيهما ، وما يستنبط منهما ، غير مؤول عن حقه ، ولا مصروف عن وجهه ، ولا مضروب بعرضه ببعض : أخرجوا الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم من الظلمات إلى النور ، فجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيداً . فلما أطاعوا الله وأطاعوا رسوله ، واتبعوا ما أنزل إليهم وساروا بما استطاعوا مما أوحى إليهم من البينات والكتاب والحكمة أثنى عليهم ربهم بأفضل ثنائهِ سبحانه فقال لهم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . ثم نبأهم بعد بما نعتهم به فيما نزل

على موسى صلى الله عليه وسلم ، وفيما نزل على عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم من قبل أن يكونوا هم شيئاً مذكوراً ؛ فقال لهم فيما يتلى عليهم : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيأهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة . ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيماً » .
صدق الله وكذب الفواولون

فهؤلاء الذين زكاهم ربهم وعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل أني ضلال مبين ، وبشرهم في أواخر ما نزل على نبيهم : بآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، من سائر التابعين ومن تبعهم بإحسان ، هم الذين كان بهم تاريخ الإسلام تاريخاً ، وبما اتبعوا من آدابه وأخلاقه وسننه ، وبما كانوا به بشراً يتعاشرون فيتآلفون ويتنافسون ، وبما أخطأوا وأصابوا ، وبما عدلوا وأسرفوا ، وبما استغفروا إلى ربهم وتابوا ، وبما اجتهدوا فأحسنوا أو اجتهدوا فأساءوا ، وبكل ما تكون به الحياة الإنسانية حياةً مختلفة الأبدان والوجوه والصور والأعمار ، مختلفة الطبائع والغرائز والنوازع ، مختلفة الحاجات والدوافع ، مختلفة المساخط والمحامد ، مختلفة فيما يحب وما يكره ، مختلفة فيما يغضب ويرضى ، معدلة في كل ذلك بضابط لم يوجد مثله في تاريخ البشر : تقوى الله ، والتوبة إلى رب العالمين . ققاموا بذلك كله إذ ألزمهم ربهم كلمة التقوى في السر والعلن ، وعادوا إليه من عند زلاتهم توايين مستغفرين بالأسحار ، وعاشت هذه الأمة المنفردة في تاريخ الجنس البشري ، وأنشأت تاريخها برضى الله عن بعض عملها ، وغضبه على بعض ، وبعاقبه لبعض أهلها ومغفرته لبعض ، ولم يجعلهم ربهم أمة معصومة من خطيئهم ، ولكنهم يخطئون ويتوبون ما انفسحت آجالهم ، يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة ، فيرحمهم ربهم ويتوب عليهم ، ويعاقبهم ببعض ذنوبهم « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً » .

فمن غير الممكن — وأكاد أقول إنه المستحيل — أن يطبق إنسان لم يتأدب بما تأدبوا به في أنفسهم ، وبما صار به تاريخهم تاريخاً فيه مشابه من تواريخ الأمم ، ولكنه مختلف عنها كل الاختلاف — أن يكون مصيباً أو مقارباً للصواب ، أو خليقاً بأن يدرك بعض الصواب ، إذا هو أراد أن يكتب تاريخهم على النهج

الذي نعرفه اليوم من كتابة التاريخ ، والذي تُرمى فيه الأحكام جزافاً بلا تقوى ولا ورع ، ولا مخافة من ظنّ السوء ، ولا هيبة من بهت الناس بما ليس فيهم ، ولا تأثر من الاجترار على غيب لا يعلمه إلاّ العليم الخبير . والذي لم يجرب هذه الآداب في سريرة نفسه ، غير مستطيع أن يدرك مآتسى وأعمال هؤلاء الناس ، ولا مقاطع أحكامهم ، ولا سيرة حكاهم ، ولا طبيعة حياتهم ؛ بل هو خليق أن يخلط ما جرى في حياتهم وأيامهم ، بما جرى في حياة غيرهم وأيامهم ، وأن يحكم على الذي كان يجري بينهم سهلاً يسيراً منظوراً إليه بما ينظر به إلى مجرد الاختلاف في الرأي ، حكماً جازماً قاطعاً مدمراً ، كأن الله وكل إليه الاطلاع على سرائر خلقه ، وفوض إليه أن يقضى فيهم بقضائه : « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .



المجلة العلمية لدراسات الحضارة والفكر

المسلمون ...

المسلمون فما أذلهمو في هذه الدنيا وهم كُثُرُ
جدُّوا فجَدَّ زمانهم بهمو وتغَيروا فتغَيَّر الدهرُ

أصول حضارة الإسلام

للأستاذ محمد أسد « ليوبولد فايس »

وكيل وزارة الخارجية الباكستانية لشئون الشرق الأوسط

ترجمها عن الإنجليزية « الأستاذ محمد محمود غالى »

« محمد أسد » هو صاحب مجلة « عرفات » التى كانت تصدر بالإنجليزية عن الإسلام ، ومؤلف « الإسلام على مفترق الطرق » و « ترجم صحيح البخارى إلى الإنجليزية . نساوى الأصل ، هجر وطنه إلى الحجاز حيث عاش سنين فى البقعة المباركة التى شهدت مولد الإسلام . وأسلم منذ ثلاثين عاماً قضى أكثرها بين مسلمى الهند ، وهو الآن فى الباكستان . ونحن تقدمه اليوم على هذه الصفحات بالتحدث عن حضارة الإسلام ، ولعل مافى قوله من حكمة وسداد يرجع إلى استظهاره كثيراً من مظاهر الحضارات الأخرى ووجوهها واكتشافه أن حضارة الإسلام ظاهرة خارقة لا تخضع فى النقد التاريخى لشيء من نواميس الحضارات وقوانينها ، وهى بذلك أغنى على التحليل التاريخى من أن تقاس بغيرها .

يمتاز تاريخ البشرية بنمو الحضارات وانحلالها ، وقد تقتصر هذه الحضارات حيناً على إقليم من الأقاليم أو جنس من أجناس البشر كحضارة قدماء المصريين مثلاً . وقد تكون نتيجة جهود مشتركة لمجموعة مختلفة الأجناس فتتسع دائرتها بذلك حتى تشمل بقاعاً شاسعة الأرجاء ، والحضارة العربية مثل قائم على ذلك ولا ندرى على وجه التحديد كيف تبدأ هذه الحضارات كلها على اختلافها وتنوعها . ولكل حضارة من الحضارات عداًئها من الأساطير والخرافات التى تحاول أن تستبين على ضوءها بدء نشوئها ومولدها ، ولكن هذه القوة من الأساطير والخرافات لا تستطيع أن تثبت هذه الظواهر الاجتماعية أو هذه الحضارات إلا بعد قيامها وتناميها لأن الأساطير والخرافات ليست سوى تبرير أملتته الرغبات المستكنة فى نفوس البشر محاولة بذلك تفسير أحداث وقعت وانقضى زمانها وبعد عهد الناس بها .

فإذا نحينا هذه الخرافات والأساطير جانباً فإننا لن نجد حينئذ دليلاً تاريخياً صادقاً يرشدنا على وجه التحديد كيف بدأت حضارة من هذه الحضارات أو الزمن

الذي بدأت فيه . لأن أى حضارة من الحضارات تتبدى لنظر المؤرخين عند قيامها كائناً حياً سوى الحلقة وتكون بذلك قد خلفت وراءها بعض مراحل تطورها في ظلال ماض يستعصى على التعريف الدقيق .

فإذا حاول المؤرخ أن يمتد بنظره إلى ما وراء نضج حضارة ما واستوائها ، فقد يستبين صورة هذه الحضارة في مراحلها النضجة الأولى ، ولكنه سوف يعجز عن أن يتبين توقيت ميلاد هذه الحضارة أو طريقة نشوئها على وجه محدد ولعل هذا العجز عن التقصى التاريخي راجع إلى أن الحضارات بوجه عام لا يمكن أن تولد كما يولد الأفراد ، بل إنها تنساب في غير تميز إحداها في الأخرى دون أن تكون بين كل منها مرحلة انتقال بيّنة محددة .

ولقد نستطيع حقاً في أحيان كثيرة أن نتبين نسبة حضارة ما فتردها إلى أصولها إذا تناولنا بالتحليل ما تركت من أساطير وعادات وخرافات وما خلفت من تراث فكري شاركت فيه غيرها من الحضارات التي عاصرتها أو سبقتها . ولكننا لا نستطيع أن نحدد أو نعين فترة الانتقال بين حضارة سلفت وأخرى تلتها نغنيها بالبحث والدرس والتمحيص ويصدق هذا القول على الحضارات كلها ، ما هو قائم منها وما اندثر وزال . فلا نستطيع مثلاً أن نحدد بدء الحضارة الغربية الحديثة ، فإن كل ما ندرسه عنها أنها تطورت شيئاً فشيئاً من حطام الحضارة الرومانية وامتزجت بدين شرقي هو المسيحية ، بعد أن عدلته وحورته طبقاً لحاجات الغرب واستعداداته وظروف حياته . ولكننا لا نستطيع أن نحدد على وجه دقيق متى اتخذت هذه الحضارة الجديدة المركبة طابعها المحدد المتميز . وكل ما نستطيع أن نقوله في هذا الصدد أن ذلك لا بد أن يكون قد تم في أوائل العصور الوسطى في مدى أربعة قرون أو خمسة على وجه التقريب ، ولا نستطيع أن نذهب في التحديد إلى أكثر من ذلك ، بل ليس هناك من العلماء من يستطيع أن يحدد تحديداً قاطعاً حقبة معينة من حقبة التاريخ أو حتى قرناً بذاته ليقول هنا وتحت هذه الظروف بدأت الحضارة الغربية .

الواقع إذن هو أن الحضارة الغربية بدت في الوجود وأبرزتها في مواكب الزمان تطورات استطالت أحقاباً طويلة فكانت مقوماتها الأساسية التي تتمثل في نظرتها إلى الحياة الإنسانية والأخلاق وفضائل النفس ، وفي شرائعها وعاداتها وقوانينها الاجتماعية . نتاج امتزاج بطيء لخليط من المؤثرات الفكرية مختلف أشد الاختلاف ، ولعناصر من الحضارات متباينة أشد التباين ، فلم يكن ما ورثته عن امبراطورية روما وما خلفته لها

المسيحية هو كل ما أثر عليها وحدد اتجاهها ، ولكن هذين المؤثرين اختلطا بما ورثته من تقاليد قبلية عن القوط والكلت فيما ورثت من مخلفات انحدرت مع الزمن من أعماق سحيقة قد يرجع الأصل في عناصرها إلى منطقة أواسط آسيا .

ولست حضارة الرومان ذاتها أكثر وضوحاً أو تحديداً من سابقها لأننا سنرى حين نرجع بها إلى أصولها الأولى أنها كانت نتاج امتزاج فكري معقد متشابك يرجع بعضه إلى من نزل بإيطاليا من أقوام قبل الإيطاليين أنفسهم ممن كانوا يدعون أتراكين Etruscans ، وكان هؤلاء كذلك عنصراً مركباً أشد التركيب ذا حضارة بدأت في غالب الأمر في آسيا الصغرى . . بينما يرجع بعض أصول حضارة الرومان إلى اليونان ومن تبقى منهم في آسيا الصغرى ، وإلى حضارة أخرى سميت حضارة المناويين Minoan كما جرى اصطلاح المؤرخين على تسميتهم بهذا الاسم . وحضارة المناويين حضارة مهمة معقدة تركزت في جزيرة كريت . واستمدت جذورها من تراث المصريين وحضارتهم على أصح الأقوال .

وما قيل عن حضارة الرومان نستطيع أن نقوله كذلك عن حضارة الهندوس التي تمتد بها سدم الماضي إلى الشمال حتى أواسط آسيا وراء جبال پامير ، وإلى الجنوب حيث الدرافيون Dravidians وهم قوم يكتنف الغموض كذلك نشأتهم ومنبت حضارتهم ثم تسرى حضارة الهندوس في أحشاء الماضي حتى تصل إلى السامريين في أرض الجزيرة عبر موهنجدارو Mohenjodaro .

ونستطيع أن نقول مثل ذلك عن حضارة إسرائيل التي ترجع في أصولها عبر أحقاب من الزمن لا نحصى إلى صحارى بلاد العرب وإلى سهول الجزيرة الحصبية ، كما نستطيع أن نقين أنها اتصلت اتصالاً واضحاً وثيقاً بحضارة الكلدانيين والبابليين والمصريين والحيتيين . والحيتيون قوم يحوط حضارتهم غموض مطبق وإبهام كثيف . ونستطيع أن نرجع الحضارة الصينية كذلك في أصولها إلى ما قبل التاريخ ، ونستطيع أن نتبع ما نشأ عنها في اليابان من حضارة التتار - البولينييزيين

Tartaro-Polynesian

ولا تخرج حضارات بابل وإيران وآشور عما قررناه فيما سبقت الإشارة إليه من حضارات ، بل إن القول لينسحب على كل ما شاهد البشر من حضارات ، وكم في تاريخ البشرية ، من حركات تفوق الحصر انفردت كل منها بلون خاص تميزت به واستقلت فدعوناها لذلك حضارات ومدنيات.

واضح إذن أننا مهما أوغلنا في التنقيب والبحث فيما سلف من حضارات البشر فلن نجد توقيتاً معيناً نستطيع أن نحدده بدءاً لحضارة ما ، أو تاريخاً لمولدها ، ولا أن نعين حداً فاصلاً يميز بين حضارة ولّت وأخرى أشرق عليها النور وتبدت في الوجود . ولكن هناك استثناء واحد لكل ما أسلفنا من قبل ، استثناء تكاد امرأته تنذهل العقول وتنعقد الألسنة ، فلم يذكر تاريخ البشر فيما عرفه الناس من حضارات سوى حضارة واحدة برزت إلى الوجود من عالم الغيب دفعة واحدة ، واستوت للناظرين قائمة على أصولها في فترة محددة من تاريخ البشر . تلك ولا شك حضارة فذة من نوع فريد وإنها الحضارة الإسلام !

فلئن قامت كل الحضارات الأخرى ونشأت رويداً رويداً من تراث الماضي بما حوى من ضروب الرأي وتيارات الفكر ، واستغرقت في تبلورها إلى شكلها الخاص وكيانها المحدد آماداً طويلة من الزمن ، فقد انفردت حضارة الإسلام وحدها بانبجائها إلى الحياة دون سابق عهد أو انتظار ، وقد جمعت من فجر نشأتها كل المقومات الأساسية لحضارة مكتملة شاملة . فقامت في مجتمع واضح المعالم ، له نظراته الخاصة إلى الحياة ، وله نظامه التشريعي الكامل ، وله نهجه المحدد لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع . ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخر بها الماضي ولا وليد تيارات فكرية متوارثة ، ولكن هذه الحضارة كانت وليدة حدث تاريخي فريد هو تنزيل القرآن الكريم وكان مردّها إلى رجل فذ في التاريخ هو محمد رسول الله ، فلقد أدرك الذين آمنوا بالإسلام واتبعوا محمداً وصدقوا بالقرآن ، فاتخذوه قاعدة حياتهم أن الدين الجديد الذي جاءهم به القرآن يتطلب منهم هجرة بائنة إلى ما جاءهم به عما توارثوه من عقائد في الحياة وما ألقوه من مناهج السير فيها . فكان قبولهم لما جاء به — وهم أهل بادية — بداية حدث جديد في حياة البشر وتاريخهم إذ أنهم أدركوا أن الإسلام وقد جاء نظاماً شاملاً للحياة قد افتتح حقاً حضارة جديدة ، وما كان دوره ليقصر على التمهيد لغيره من الحضارات أو الارهاص بها . فتبينوا كما تبين من جاء بعدهم من المؤمنين أن مبعث رسول الله كان إيذاناً ببدء عهد جديد بكل ما ينطوي عليه هذا البدء من حقائق ومعان .

ولا ينبغي أن يفهم من ذلك أن الإسلام قد قطع كل صلة بين حضارته وبين الماضي فذلك فهم لا يقبله العقل أو يستسيغه ؛ لأن كل كائن عضوي لا يمكن أن يوجد دون أسلاف وآباء . والحضارات في ذلك كائنات عضوية دون شك ، ولن ندهش إذن حين نرى أن ما جاء به رسول الله — على ما هو عليه من جدة في النظر إلى الكون والحياة — ومن استحدثات نظام اجتماعي كامل — يتضمن كثيراً مما جاءت به الأديان من قبله

وأن نراه يتحدث عن كثير من الفضائل الخلقية التي كانت لدى من سلف قبله . ولم يتنكر لهذه الفضائل والحقائق أحد من أهل الإسلام ، بل لقد كان القرآن الكريم ذاته أصرح ما يكون اعترافاً بها وتسليماً . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن المنهج الاجتماعي الذي رسمه الإسلام قد استبقى جانباً من مظاهر الحياة العربية قبل البعثة . ولكننا يجب أن نتحرز من أن ينصرف بنا الفكر إلى أن هذا القدر الذي استبقى من حياة الجاهلية قد تسلسل إلى جوهر عقائد الإسلام وغلب على عقل بني الإسلام ، أو أن هذا الإبقاء كان إذعاناً من الرسول لمآساد بلاده وعصره من تقاليد ومعتقدات كما يدعى أهل الغرب ويرددون في أكثر ما يكتبون . إذ أن كل ما يشارك فيه الإسلام الجاهلية من نظم الاجتماع وكل ما اتفق فيه مع ما ذهبت إليه اليهودية والمسيحية من فكر وآراء جزء لا يتجزأ من الإسلام من يوم أن دوى به صوت النبي العربي في بلاد الجزيرة . ويرجع ذلك إلى أن الأصل الأول الذي قام عليه الإسلام ودعا إليه هو أن حياة البشرية وحدة تاريخية ثابتة متصلة الحلقات .

وإننا لنرى القرآن الكريم يتحدثنا قبل أن يدور بخلد إنسان شيء عن نظرية التطور والارتقاء بأمد طويل أن الحياة ليست سلسلة من قفزات لا رابط بينها ، ولكنها عملية عضوية حية مستمرة . وينطبق هذا القول على الحياة العقلية — والفكر الديني جزء منها — انطباقه على حياة بني الإنسان . بل إن هذا البشر الممتاز الذي تنزل القرآن على قلبه لم يدع لنفسه اكتشاف أصول جديدة في عالم الأديان ؛ لأن مهمة الرسول كانت حمل رسالة الله وتبليغ الناس حقائق الأديان السماوية التي عاشت في ظلها البشرية منذ نشأتها في أتم صورة وأكمل نظام . وظلت هذه الحقائق حقائق في ذاتها وإن قصر الناس عن إدراكها في زمن من الأزمان أو عدوا عليها بالمسخ والتشويه أو النسيان . ثم هو يؤلف على هدى هذه الحقائق نظاماً اجتماعياً كاملاً يلائم مطالب البشر الحقة تمام اللائمة ، ويصلح منهجاً يتبعه الناس في حاضرهم وفي غدهم . وبما يسير هذه النظرة إلى الحياة الإنسانية في وحدتها واستمرارها أن يأتي الإسلام بكل فريد مستحدث من أصول الفكر ، وأن يضم إلى ذلك بعض الأصول العقلية التي حوّاها الفكر القديم صراحة كذلك ، ولا يحدش هذا النظام الجديد أن تسمى هذه الأصول العقلية إلى حضارته الجديدة التي قامت على أسس من شريعة الإسلام .

ولا بد لي من أن أوضح ها أن ما حرصت على التحدث عنه وترديده ودعوته « حضارة الإسلام » قد يبدو عليه بعض الخلط وقد يشير بعض الاضطراب إذا حمل

هذا التعبير على أنه أريد به أن يشمل كل ما أصاب المسلمون في تاريخهم الطويل من ضروب التقدم وصور النهضة والحضارات، أو إن فهم على أنى أعنى حين أنحدث عن « حضارة الإسلام » التحدث عن حضارة بغداد أيام العباسيين أو حضارة مصر في عهد المماليك أو ما استنه مسلمو المغول من نظم الإدارة في الهند أو ما وصل إليه العرب في أسبانيا من صُورِ النهضة والتقدم في العلوم والآداب والفنون

ولذلك فإنى أريد أن أوضح هنا منذ البداية أننى أعنى « بحضارة الإسلام » هذه النظرة الخاصة إلى الفضائل الأخلاقية، وهذا المنهج الاجتماعى المتميز، وهذا الأسلوب الذى رسمه الإسلام لحياة البشر، فلا أقصد بحضارة الإسلام حدثاً بذاته أو نهضة بعينها مما استحدثه المسلمون فى أى قطر من أقطارهم أو فترة من فترات تاريخهم .

ولاسبيل إلى القول بأن حضارة الإسلام — وقد استهلت عهدها استهلالاً رائعاً منذ بزوغها من ثنايا التاريخ كاملة العناصر والأركان — قد وصلت إلى تمام شكلها ونمائها دفعة واحدة لأنها لا بد أن تنمو وأن تتطور كما تنمو الكائنات الحية وكما تتطور، ولا يعنى النمو العضوى مجرد تطور فى كل موروث من الصفات، ولكنه يعنى كذلك اندماج الكائن الحى فيما حوله من أحداث خارجة عنه وانتفاعه بها . ولهذا كان من الطبيعى أن تتصل حضارة الإسلام خلال الزمن ببعض العناصر والمقومات الخارجة عنها والى جاءتها من حضارات أخرى والى أحدثت فى خلقها الأولى بعض التغيير والتجوير، ولا يتعدى تأثير مثل هذه العوامل التى تحدثها البيئة فى نهضة من النهضات ما يتعرض له الطفل فى أطوار نموه من تأثر بالبيئة الطبيعية والاجتماعية المحيطة به، فكما لا نستطيع كل مؤثرات البيئة أن تغير من بنية الطفل وخصائص تكوينه فى أساسه وجوهره من يوم لفظته أحشاء أمه إلى هذه الحياة الدنيا . فكذلك لا نستطيع المؤثرات الطارئة المأخرة التى اعترت حضارة الإسلام أن تغير من خصائصها الأولى أى تغيير أساسى، فكان جل ما أصابته هذه المؤثرات هو تغطية هذه الخصائص والمقومات أو تعطيلها إلى حين .

لقد بدأت حضارة الإسلام إذن رغم كل هذه العوامل والظروف والمؤثرات كائناً حياً متكاملًا متميزًا انبثق نجمها فكان ظهورها فى توقيت تاريخى محدد امتد زهاء ثلاثة وعشرين عاماً هى هذه الحقبة التاريخية التى قضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ظهر هذه الحياة من يوم بعثته حق لى الرفيق الأعلى . وليس هناك فى التاريخ البشرى كله من حضارة فى القديم أو الحديث نستطيع أن نحدد تاريخ مولدها والظروف والعوامل التى صاحب وجودها ونشأتها سوى حضارة الإسلام .

الشجرة المباركة..!

قال صاحبي : أدعوه إلى الرهبانية وديننا دين كفاح ١٢ قلت لا « يا أخا الحق » وإنما هي دعوة إلى التجرد « للحق وحده » من كل عاقلة ، مجرداً يصفو به « النبع » في أنفس أصحابه حتى يكون إقبالهم به على الناس إقبالا واحداً غير مختلف . . . هي دعوة إلى أن تكون الفكرة عند صاحبها السكن الرحب الآمن لفكره في كل أحواله ، ولروحه في كل مسارحها : إذا ناوشه رأى حكم فكرته . . . وإذا ساوره خاطر رده إليها . . .

بل أزيد فأقول : يجب أن تصبح الفكرة عند صاحبها طبعاً يحكمه ، وعاطفة تأخذ بتلابيبه ، وهو لا يبلغ هذه الصحة إلا إذا أصبح ملكاً لفكرته ، لا يملكه غيرها : يحب بها ويبغض بها ، وذلك وحده هو « بلوغ الرشد » في عمر الدعوات . « ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم (الراشدون) فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم » .

وهذه حالة لا يصنعها هتاف ولا ورقة مكتوبة . . . ولا تزجى إلى الإنسان من غيره ولو كان غيره هذا في الدرا علماً وحكمة ، ولكنها تأتي بعد أن تدرك بذرة الحق القرارة من القلب ، وتتصل جذورها بحقيقة الإنسان ، وتنتهي لها مسارب الرحمة من سر الله ، فيسرى الحق في فروعها مسرى الماء ، وتحمل سمات الحق للشرقة حمل الثمر . . . وتحد الجوارح أخلاقها أصيلة يانعة ، تتألق تألق الربيع ، وتنفتح نفح الزهر : « سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » .

* * *

لا بد أن « يربى » الإيمان يا صاحبي تربية النبات ، وأن تختار له « التربة » التي تصلح له ، و « الطقس » الذي ينبت فيه . . . ثم « تحرث » له الأرض ، ويتعهد « بالرى » السواء الذي يترعرع به . . . ولا يبقى بعد إلا الزمن يفعل فعله ، وإلا حفظ الثمر على فرعته حتى يأخذ « حظه المقدر » من رحمة الله ، ويحين « موسم الحصاد » : « إن الله بالغ أمره قد جعل لكل شئ قدراً » .

النشريع الجنائي الاسلامي

للاستاذ عبد القادر عوده

(٢)

الفصل الاول في أركان جريمة الزنا

٨ — تعريف الزنا : يعرف الزنا عند المالكيين بأنه وطء مكلف فرج آدمي لا ملك له فيه باتفاق تعمداً^(١).

ويعرفه الحنفيون بأنه وطء الرجل المرأة في القبل في غير الملك وشبهة الملك^(٢).
ويعرفه الشافعيون بأنه إيلاج الذكر بفرج محرم لعينه خال من الشبهة مشتغى طبعاً^(٣).
ويعرفه الحنابلة بأنه فعل الفاحشة في قبل أو دبر^(٤).
ويعرفه الظاهريون بأنه وطء من لا يحل النظر إلى مجردها مع العلم بالتحريم ، أو هو وطء محرمة العين^(٥).

ويعرفه فقهاء الشيعة الزيدية بأنه إيلاج فرج في فرج حى محرم قبل أو دبر بلا شبهة^(٦).

٩ — أركان جريمة الزنا : ظاهر مما سبق أن هناك اتفاقاً على أن الزنا هو الوطء المحرم المتعمد ومؤدى هذا أن لجريمة الزنا ركنين أولهما : الوطء المحرم . وثانيهما : تعمد الوطء أو القصد الجنائي .

وسنتكلم على كل من هذين الركنين فيما يلي :

(١) شرح الزرقاني وحاشية البناني ج ٨ ص ٧٤ ، ٧٥ — مواهب الجليل ج ٦ ص ٢٩٠

(٢) شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٣٨ — الزيلعي ج ٣ ص ١٦٣ — البحر الرائق ج ٥ ص ٣

بدائع الصنائع ج ٣ ص ٣٣

(٣) نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٠٢ — أسنى المطالب ج ٤ ص ١٢٥ — المهذب ج ٢ ص ٢٨٣

(٤) الإقناع ج ٤ ص ٢٥٠ — المغني والشرح الكبير ج ١٠ ص ١٥١

(٥) المحلى لابن حزم الحادى عشر ص ٢٢٩ ، ٢٥٦

(٦) شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٣٦

الوطء المحرم

١٠ — الوطء المعتبر زنا : هو الوطء في الفرج ، بحيث يكون الذكر في الفرج كالليل في المكحلة والرشا في البر . ويكفي لاعتبار الوطء زنا شرعاً أن تغيب الحشفة على الأقل في الفرج أو مثلها إن لم يكن للذكر حشفة ، ولا يشترط على الرأي الراجح أن يكون الذكر منتشراً .

ويعتبر الوطء زنا ولو كان هناك حائل بين الذكر والفرج مادام هذا الحائل خفيفاً لا يمنع الحس واللذة . وإدخال الحشفة أو قدرها يعتبر زنا ولو دخل الذكر في هواء الفرج ولم يمس جلده ، كما أنه يعتبر زنا سواء حدث إنزال أم لم يحدث (١) . والقاعدة أن الوطء المحرم المعتبر زنا هو الذي يحدث من غير نكاح ، فكل وطء من هذا القبيل زنا عقوبته الحد ، ما لم يكن هناك مانع شرعي من هذه العقوبة . أما إذا حدث الوطء أثناء قيام النكاح فلا يعتبر الفعل زنا ولو كان الوطء محرماً لأن التحريم في هذه الحالة عارض ، فوطء الرجل زوجته الحائض أو النفساء أو الصائمة أو المحترمة ، أو التي ظاهر منها ، أو آلى منها كل ذلك محرم يعاقب عليه بالتعزيز ولكنه لا يعتبر زنا (٢) .

وإذا لم يكن الوطء على الصفة السابقة فلا يعتبر زنا يعاقب عليه شرعاً بالحد ، وإنما يعتبر معصية يعاقب عليها بعقوبة تعزيرية ملائمة (٣) ، ولو كانت المعصية في ذاتها مقدمة من مقدمات الزنا كالمفاخضة : أي الإيلاج بين الفخذين وكالمباشرة خارج الفرج .

(١) راجع في كل ما سبق شرح الزرقاني ج ٨ ص ٧٤ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١١٥ — حاشية ابن عابدين ج ٣ ص ١٩٤ — أسنى المطالب ج ٤ ص ١٢٥ — نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٠٢ — المغني ج ١٠ ص ١٥١ — الإقناع ج ٤ ص ٢٥٣ — المحلى ج ١١ ص ٢٢٩ و ٣٩١ وما بعدها — شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٣٦ .

(٢) راجع في كل ما سبق شرح الزرقاني ج ٨ ص ٧٩ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٤٠ — حاشية ابن عابدين ج ٣ ص ١٩٤ — أسنى المطالب ج ٤ ص ١٢٦ — نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٠٤ — المغني ج ١٠ ص ١٥١ — بدائع الصنائع ج ٧ ص ٣٥ — المحلى ج ١١ ص ٢٥٠ ، ٢٥٦ — شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٣٦ .

(٣) راجع ما كتبناه عن المعاصي والحدود والتعازير في الجزء الأول ص ٧٨ و ١٢٦ وما بعدها

والقاعدة في الشريعة أن من حرمت مباشرته في الفرج بحكم الزنا أو اللواط حرمت مباشرته فيما دون الفرج بشهوة لقوله عز وجل . « والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » المؤمنون (٥ - ٧) .

وتحرم الشريعة الخلوة بامرأة غير محرم وذلك لقول الرسول صلى الله عليه وسلم . « لا يخلون أحدكم بامرأة ليست له بمحرم فإن ثالثهما الشيطان » فإذا حرمت الخلوة بها فلأن تحرم المباشرة أولى لأنها أدعى إلى الحرام .

ومن القواعد الأصولية في الشريعة قاعدة أن ما أدى للحرام فهو حرام ، فإن فعل الجنائي مالا يوجب الحد فعقوبته التعزير ، سواء كان مافعله وطئاً لم تتم شروطه كالإبلاج بين الفخذين أو في الفم ، أو كان مافعله ليس وطئاً كالخلوة بالمرأة الأجنبية وكالعتاق والقبلة والنوم معها في فراش واحد ، لأن هذه جميعاً أفعال محرمة ، فضلاً عن أنها من مقدمات الزنا وتؤدي إليه .

واستمناء الرجل بيد امرأة أجنبية ليس زناً ، وكذلك إدخال الرجل إصبعه في فرج امرأة ، وإنما كلا الفعلين معصية فيها التعزير .

ولو عرضت المرأة فرجها شيئاً دون أن تدخله أو لامست فرجها بيدها حتى ينزل فذلك مكروه ولا معصية فيه ، وبالتالي لا عقوبة عليه ، ومثل ذلك ما لو استمنى الرجل بيد نفسه لأن مس الرجل ذكره بشماله مباح ومس المرأة فرجها مباح ، فإذا هو مباح فليس هناك زيادة على المباح إلا تعدد الإنزال وليس ذلك حراماً أصلاً ، وقد تكلم الفقهاء في هذا فكرهته طائفة وأباحته أخرى ، وحجة الكارهين أنه ليس من مكارم الأخلاق ، ولأمن الفضائل^(١) ، ولكن الزيديين يعتبرون الفعل معصية يعاقب عليها بالتعزير .

ويلاحظ أن الشريعة تفرق بين الوطء وما دونه ، فتعاقب على الأول بعقوبة الحد وتعاقب على الثاني بعقوبة تعزيرية ، ولكن الشريعة مع هذا تعتبر الفعل في الحالين جريمة تامة ، ولا تعتبر أحدهما جريمة تامة والثاني شروءاً فيها كما هو الحال في القوانين الوضعية^(٢) .

(١) راجع في كل ما سبق حاشية ابن عابدين ج ٣ ص ٢١٥ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٥٠ أسنى المطالب ج ٤ ص ١٢٥ — المهذب ج ٢ ص ٢٨٦ — الأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٠٦ — الإقناع ج ٤ ص ٢٥٣ — الفتن ج ١٠ ص ١٦٣ — المحلى ج ١١ ص ٣٩٢ شرح الأزهار رابع ص ٣٣٦ والثاني ص ١٩٧ .

(٢) فصلنا الكلام على هذه الملاحظة في الجزء الأول من ص ٣٤٣ — ٣٤٦ .

١١ — الوطء في الدبر : ويستوى عند مالك والشافعي وأحمد والشيعة الزيدية أن يكون الوطء المحرم في قبل أو دبر لأنثى أو رجل ، ويشاركهم في هذا الرأي محمد وأبو يوسف من أصحاب أبي حنيفة . وحجتهم أن الوطء في الدبر مشارك للزنا في المعنى الذي يستدعى الحد وهو الوطء المحرم ، فهو داخل تحت الزنا دلالة ، فضلا عن أن القرآن سوى بينهما فقال جل شأنه : « إنكم لتأتون الفاحشة » وقال : « إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء » وقال : « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم » وقال : « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما » فجعل الوطء في الدبر فاحشة ، والوطء في القبل فاحشة ، فسمى أحدهما بما سمى به الآخر . كذلك روى أبو موسى الأشعري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان ، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان ^(١) » .

ويرى أبو حنيفة أن الوطء في الدبر لا يعتبر زنا سواء أكان الموطوء ذكراً أو أنثى وحجته أن الإتيان في القبل يسمى زنا والإتيان في الدبر يسمى لواطاً واختلاف الأسماء دليل على اختلاف المعاني ، ولو كان اللواط زنا ما اختلف أصحاب الرسول في شأنه ؛ فضلا عن أن الزنا يؤدي إلى اشتباه الأنساب وتضييع الأولاد وليس الأمر كذلك في اللواط ؛ كما أن العقوبة تشرع دائماً لما يغلب وجوده ، والزنا وحده هو الغالب لأن الشهوة المركبة في الرجل والمرأة تدعو إليه ، أما اللواط فليس في طبيعة المحل ما يدعو إليه ^(٢) .

أما الظاهريون فلا يرون اللواط زنا وإنما يرونه معصية فيها التعزير وحجتهم أن اللواط غير الزنا وأنه لم يرد نص ولا أثر صحيح يعطى اللواط حكم الزنا ^(٣)

١٢ — وطء الزوجة في دبرها : ومن التفرق عليه أن إتيان الزوجة في دبرها لا يعاقب عليه بعقوبة الحد لأن الرجل يملك وطء زوجته ولأنها محل للوطء . ولكن الفقهاء اختلفوا في تكليف الفعل ، فيرى أحمد وأبو يوسف ومحمد أصحاب أبي حنيفة أن الفعل زنا يعاقب عليه أصلاً بعقوبة الحد ، ولكن هذه العقوبة تدراً لشبهة

(١) شرح الزرقاني ج ٨ ص ٧٥ — أسنى المطالب ج ٤ ص ١٢٦ — المغني ج ١٠ ص ١٦٠
شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٣٦ — بدائع الصنائع ج ٧ ص ٣٤ .

(٢) بدائع الصنائع ج ٧ ص ٣٤ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٥٠ .

(٣) المحلى ج ١١ من ص ٣٧٠ إلى ٣٨٥ .

الملك وللإختلاف في حلاية الفعل^(١) ومن ثم يعاقب على الفعل بعقوبة تعزيرية . ويرى المالكيون والشافعيون والشيعة الزيدية أن الفعل لا يعتبر زنا لأن الزوجة محل لوطء الزوج وللزوج أن يستمتع بها ، ولكن المالكيين والزيديين يرون أن الفعل مع هذا محرم ويعاقب عليه بعقوبة تعزيرية . أما الشافعيون فلا يرون التعزير على الفعل إلا عند العودة له بعد نهى الحاكم عنه ، فالجريمة عندهم جريمة اعتياد ولا تقع إلا بعد النهي عنها فإذا لم يكن نهى فلا عقاب ، على أن بعضهم يرى العقوبة على تكرار الفعل ولا يصرح باشتراط النهي عن الفعل ، ومعنى هذا أن الفعل عندهم محرم لاشك في تحريمه فلا حاجة لأن ينهى عنه الحاكم .

ويرى أبو حنيفة أن الفعل لا يعتبر زنا للأسباب التي سبق بيانها ولكنه معصية يعاقب عليها بعقوبة التعزير .

وكذلك الأمر عند الظاهريين فهم لا يعتبرون الإتيان في الدبر بصفة عامة زنا ولكنهم يرونه معصية يعزر عليها^(٢) .

١٣ — وطء الأموات : ووطء المرأة الأجنبية الميتة لا يعتبر زنا عند أبي حنيفة ، وكذلك استدخال المرأة ذكر الأجنبي الميت في فرجها ؛ وهذا أيضاً رأى مذهبي الشافعي وأحمد ؛ والقائلون بهذا الرأي يوجبون التعزير في الفعل ، وحجتهم أن الوطء في الميتة ومن الميت كلا ووطء لأن عضو الميت مستهلك ، ولأنه عمل تعافه النفس ولا يشتهى عادة ، فلا حاجة إلى الزجر عن الفعل ؛ والحد إنما يجب للزجر . وعلى هذا الرأي الشيعة الزيدية^(٣) :

والرأي الثاني في مذهبي الشافعي وأحمد يرى أن الفعل يعتبر زنا يجب فيه الحد إذا لم يكن بين زوجين لأنه ووطء محرم بل هو أعظم زنا وأكثر إثماً ، حيث انضم إلى الفاحشة هتك حرمة الميت^(٤) ، وأصول الظاهريين يقتضي أن يكون رأيهم متفقاً مع هذا الرأي . .

(١) يعتبر الفقهاء القائلون بالشبهة أن إختلاف الفقهاء في حل الفعل وحرمة يعتبر بذاته شبهة تدرك الحد .

(٢) راجع كل ما سبق مواهب الجليل ج ٦ ص ٢٩١ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٥٠ — نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٠٤ — أسنى المطالب ج ٤ ص ١٢٦ — المغني ج ١٠ ص ١٦٢ المحلى ج ١١ ص ٣٧٠ — شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٣٦ .

(٣) شرح فتح القدير رابع ص ١٥٢ — نهاية المحتاج سابع ص ٤٠٥ — المغني ج ١٠ ص ١٥٢ — شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٣٦ .

(٤) نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٠٥ — المغني ج ١٠ ص ١٥٢ .

ويرى مالك أن من أتى ميتة في قبلها أو دبرها حال كونها غير زوج له فإنه يعتبر زانياً ويعاقب بعقوبة الزنا لالتذاده بذلك الفعل ؛ بخلاف من وطئ زوجته الميتة فإنه لا حد عليه ، وبخلاف إدخال المرأة ذكر الميت غير زوج في فرجها فإنها تعذر ولا تحد فيما يظهر لعدم اللذة (١) .

١٤ — وطء البهائم : ووطء البهائم والحيوانات على العموم لا يعتبر زنا عند مالك وأبي حنيفة ولكنه معصية فيها التعزير ، وفي حكمه أن تمكن المرأة من نفسها حيواناً كقرد مثلاً ، ولا يرون الفعل زناً لأن اعتباره كذلك يوجب فيه عقوبة الحد وهي مشروعة للزجر ، وإنما يحتاج للزجر فيما طريقته منفتح سالك وهذا ليس كذلك لأنه لا يرغب فيه العقلاء ولا السفهاء وإن اتفق لبعضهم ذلك لغلبة الشبق فالفعل إذن لا يفتقر إلى الزجر لزجر الطبع عنه .

وللشافعي وأحمد رأيان أرجحهما يتفق مع رأى أبي حنيفة ومالك ، والثاني يعتبر الفعل زناً ولكنه يرى أن العقوبة عليه القتل في كل الأحوال ، وسند هذا الرأي ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة » وهو حديث لا يصححه الكثيرون .

وبعض الشافعيين يعتبر الفعل زناً قياساً على إثبات الرجل المرأة ويجعلون عقوبة الحصن الرجم وعقوبة غير الحصن الجلد والتعزير ، وهذا الذي يراه بعض الشافعيين هو الرأي الراجح في مذهب الشيعة الزيدية وإن كان بعضهم يرى ما يراه مالك وأبو حنيفة .

والشافعيون والحنابلة يرون أن المرأة التي تمكن من نفسها حيواناً عليها ما على واطئء البهيمة . على أن بعض الشافعيين يصرحون بأن ليس على المرأة إلا التعزير . ويرى الحنابلة في كل الأحوال قتل البهيمة المأتية سواء عذّر الواطئء أو قتل ، ومن يرى من الشافعيين قتل الواطئء يرى أيضاً قتل البهيمة . أما الزيديون فيكرهون لحمها وشرب لبنها ولا يرون قتلها .

ويرى الظاهريون أن واطئء البهيمة ليس زانياً لأن وطء البهائم ليس زناً ولم يرد نص بالحاقه بالزنا ، ولكن لما كان وطء البهيمة محرماً أصلاً ففاعل ذلك فاعل منكر ومرتكب لمعصية وعقوبته التعزير .

في التاريخ ...

فكرة ومنهج

للاستاذ سيد قطب

(٢)

ولما كانت الحياة الإسلامية فترة من الحياة البشرية ؛ والمسلمون جماعة من بني الإنسان في حيز من الزمان والمكان . والإسلام رسالة كونية بشرية غير محدودة بالزمان والمكان . . .

فإن التاريخ الإسلامي لا يمكن فصله من التاريخ الإنساني . وقد تأثرت تلك الفترة — من غير شك — بتجارب البشرية كلها من قبل ، وبخاصة تلك العوامل التي كانت واقعة عند مولد الإسلام ، ثم أثرت بدورها في تجارب البشرية من بعد ، وبخاصة تلك الجهات التي امتدت إليها أو جاورتها .

فلا بد إذن عند كتابة التاريخ الإسلامي من الإلمام بالصورة التي انتهت إليها تجارب الإنسانية قبيل مولد الإسلام ، والحالة التي صارت إليها المجتمعات البشرية في الأرض وبخاصة من ناحية العقائد الدينية وسائر ما يتعلق بها من أفكار وفلسفات ونظريات . ومن ناحية الأوضاع الاجتماعية وما يتعلق بها من نظم الحكم وسياسة المال وعلاقات المجتمع والأخلاق والعادات والأفكار . كي تتبين على ضوءها حقيقة دور الإسلام وطبيعته . ويمكن تفسير استجابة العالم لهذا النظام الجديد قبولاً أو رفضاً ، وتصور أسباب الصراع وعوامل النصر والهزيمة كاملة ، وعناصر التفاعل والتدافع والتلاق والانعكاس على مر الأيام .

وإذا كان الإلمام بوضع العالم إذ ذاك ضرورياً ، فإن الإلمام بوضع الجزيرة العربية وتصور الحياة فيها من كافة نواحيها أكثر ضرورة بوصفها مهد الإسلام الأول من جهة ، ومركز التجمع والانسياب من جهة أخرى .

فهل كانت مصادفة عابرة أن يظهر هذا الرسول بهذا الدين في هذا الموضع من الأرض في هذا الزمان ؟ أم أن هنالك نظاماً مقدوراً ، وقصداً مقصوداً ، وتدبيراً معيناً ، وترتيباً موضوعياً ، لتلتقي هذه الظواهر كلها حيث التقت ، كي تؤدي دوراً معيناً ، ليس أقل نتائجها تخطيط خريطة العالم في عالم الظاهر وفي عالم الشعور على هذا الوضع الذي صارت إليه الأمور ، منذ ذلك التاريخ البعيد !

ولعل هذا الخاطر أن يسوق إلى دراسة « محمد الرسول » في هذا السياق الكوني للتاريخ . فاعمل في شخصه وفي نسبه وفي بيئة حياته ، وفي تقاليد بيئته . . وفي سائر ما يحيط بالفرد الإنساني من مقومات . عوامل مقصودة ، ومواقفات مدبرة ؛ وأنها لم تكن مصادفة عابرة أن يشار إليه من بين الجموع البشرية الحاشدة ، وأن يقال له : أنت . فانتدب لهذا الحدث الكوني الذي لم يسبق ولم يلحق بنظير .

ولعله كذلك أن يسوق إلى دراسة طبيعة هذا الحدث ؛ والفكرة الكلية التي يتضمنها قبل البدء في دراسة الأحداث والانقلابات العالمية التي تمت على أساسها . وبذلك تنهياً للقارئ لمثل هذا التاريخ صورة مستكملة الجوانب لكل الأوضاع والأحوال التي نشأت عنها الاستجابات التي وقعت بالفعل في تاريخ الإسلام في الفترة التي تلت ظهوره كما ينهياً له تفسير هذه الاستجابات تفسيراً صحيحاً ، مستكملاً لكل عناصر الحكم والتقدير .

وبذلك يستحيل التاريخ عملية استبطان وتجاوب في ضمائر الأشياء والأشخاص ، والأزمان والأحداث . ويتصل بناموس الكون ، ومدارج البشريه ، ويصبح كائناً حياً ، ومادة حياة .

ومق استقام البحث على ذلك المنهج الذي أسلفنا في « مقدمات التاريخ الإسلامي » وبرزت تلك المقومات الأساسية لطبيعة الدعوة ، وطبيعة الرسول ، وطبيعة البيئة التي استقبلت الدعوة واستقبلت الرسول ، وطبيعة المجتمع الإنساني الذي كان يعاصر مولد الإسلام ، وطبيعة العقائد والأفكار التي كانت تسوده يومذاك .

مق برزت تلك المقومات الأساسية ، سهل تتبع نشاطها وتفاعلها وصورورها ، وأمكن تصوير وتصور خطوات الدعوة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الخطوات التي تسير متأثرة بتلك المقومات كلها ، وتفاعل بعضها مع بعض . ويتسر لنا وللناس في هذا الجيل أن نعرف كيف اختار الرسول رجاله ، ومن أية طينة كان هؤلاء الرجال ؟ وكيف صاغ الرسول رجاله ، وكيف أعدهم للهمة العظمى ؟ وكيف بنى الرسول نظامه ، وعلى أي الأسس قام هذا النظام ؟ وكيف تحولت الجزيرة العربية مهدياً لهذا الدين الجديد ، أو لهذا النظام الجديد ؟ وماذا كان في طبيعتها وفي ظروفها وفي رجالها وبيوتها وعشارها ، وفي علاقاتها الاجتماعية ، وملاساتها الاقتصادية والجغرافية والحوية . . من استعداد لتلبية هذا الحدث أو معارضته ؟ . .

إلى آخر هذه المباحث التي تصور المرحلة الأولى من مراحل حياة الإسلام ، أو من تاريخ الإسلام والتي تصح تسميتها باسم . « الإسلام على عهد الرسول » .

ثم نجيء المرحلة الثانية . مرحلة « المد الإسلامي » . . ذلك عند ما انساح الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها . عندما فاض ذلك الفيض الانفجاري العجيب الذي لم يعرف له العالم نظيراً في سرعته وفي قوته . لا من ناحية الفتح العسكري وحده ، ولكن من ناحية التأثير الروحي والفكري والاجتماعي أيضاً : أي من الناحية الإنسانية الشاملة ، التي شهدت تحولا كاملا في خط سير التاريخ على مولد هذا الدين الجديد ، وانتشاره ذلك الانتشار العجيب . ا

وهنا تبدو قيمة المنهج الذي أشرنا إليه . ويمكن تتبع أعمال الهدم والبناء ، التي قام بها الإسلام في تلك الرقعة الفسيحة التي امتد إليها ، وتفاعله مع الأفكار والعقائد التي كانت سائرة فيها ، ومع النظم الاجتماعية التي كانت تظللها ، ومع الظروف الاقتصادية ، والخلفات التاريخية ، والملاسات الإنسانية ، في أخصب بقاع الأرض ، وأكثرها حضارة في ذلك الزمان .

والمد الإسلامي لم يقف عند الحدود التي وصلت إليها فتوحاته العسكرية . فلقد امتدت الموجة الفكرية ، والحضارة التي كونها إلى ما وراء حدود العالم الإسلامي قطعاً . ولا بد من دراسة آثار هذا المد فيما وراء هذه الحدود . دراستها طرداً وعكساً في حياة العالم الإسلامي ذاته ، وفي حياة العالم الإنساني كله . فقد أخذ هذا العالم من الإسلام وأعطى ، وقد تأثر به وأثر فيه . ودراسة هذه التفاعلات في ضوء المنهج الذي صورنا خصائصه كفيلة بأن تنشئ صورة من التاريخ غير مسبوقة ، ذات حيوية خاصة ، وذات طابع خاص ؛ بل كفيلة بأن تنشئ صورة للعالم الإنساني وخطواته الحية مختلفة قليلاً أو كثيراً عن الصورة التي اعتاد الغربيون أن يرسموها ، والتي اعتدنا نحن أن نراها ا

ثم يجيء دور « انحسار المد الإسلامي » . وعلى ضوء هذا المنهج وضوء دراسة المراحل التاريخية السالفة يمكن أن نتبين أسباب هذا الانحسار وعوامله الداخلية والخارجية جميعاً . كم من هذه العوامل من طبيعة العقيدة الإسلامية والنظام الإسلامي ، وكم منها من صنع المسلمين أنفسهم ، وكم منها لرد الفعل في العالم غير الإسلامي ؟ ثم هل كان هذا الانحسار شاملاً أم جزئياً ؟ وسطحياً أم عميقاً ؟ وما أثر هذا الانحسار في خط سير التاريخ ،

وفي تكليفه أحوال البشر ، وفي قواعد التفكير والسلوك ، وفي العلاقات الدولية والإنسانية ؟ وما وزن الأفكار والنظم والعقائد التي استحدثتها الإنسانية بالقياس إلى نظائرها في الإسلام ؟ وماذا كسبت البشرية وماذا خسرت من وراء انحسار المد الإسلامي وظهور هذا المد الأوربي الذي ما زال تظلنا ببقاياه .

ومن ثم يصبح الحديث عن « العالم الإسلامي اليوم » طبيعياً وفي أوانه ، وقائماً على أسسه الواضحة الصريحة ؛ وليس حديثاً عليه العاطفة أو التعصب من هذا الجانب أو ذاك . ويصبح التاريخ الإنساني في — ضوء منهجنا الخاص — مسلسل الحلقات ، متشابك الأواصر ، ويتحدد دور الإسلام في هذا التاريخ في الماضي وفي الحاضر ، وتبين خطوته في المستقبل على ضوء الماضي والحاضر .

ولكن . لماذا يجب إعادة كتابة التاريخ الإسلامي على أساس هذا المنهج وهذا النسق وهذا الاتجاه ؟

سؤال في وقته المناسب ، وجوابه ضروري ، وأسبابه معقولة . إن هنالك أكثر من داع لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي على هذا النهج الجديد . لمصلحة الحقيقة ، ولمصلحة الأمة الإسلامية ، ولمصلحة العالم الإنساني . لقد تبين من مقدمات هذا الحديث أن التاريخ الإسلامي الذي بين أيدي الناس في مشارق الأرض ومغاربها إما أنه مبثوث في المراجع العربية القديمة — وهذه يصعب الانتفاع بها للقارئ المعاصر بصفة عامة ، ويتعذر بالقياس إلى غير العارفين باللغة العربية — وإما أنه في صورة دراسات منظمة ولكنها معروضة من زاوية النظر الغربية ، التي كشفنا عما فيها من نقص وقصور — على فرض النزاهة العلمية المطلقة وهو مالا يمكن ضمانه في حالات كثيرة .

ومن ثم فالحقيقة وحدها تحتم علينا أن نعيد كتابة التاريخ الإسلامي من زاوية أخرى . فإن لم تكفل هذه الزاوية رؤية أكمل وأدق وأعمق ، فهي على الأقل تكفل توسيع مدى الرؤية وجوانبها ، عند موازنتها أو ضمها إلى الزاوية الغربية التي يعتمد الناس عليها ، ونعتمد نحن أيضاً عليها ، فيما نكتبه في العصر الحديث .

هذه واحدة . . والثانية أننا نحن — الأمة الإسلامية — إنما ننظر الآن إلى أنفسنا وإلى سوانا بعدسة صنعتها لنا أيد أجنبية عنا . أجنبية عن عقيدتنا وتاريخنا . أجنبية عن مشاعرنا وإدراكنا . أجنبية عن فهمنا للأمور وإحساسنا بالحياة وتقديرنا للأشياء ..

ثم هي بعد ذلك كله مفرضة — في التاريخ — على الناس الذين لا الخير . لأن مطامعها ومطامعها ومصالحها الخاصة وأهدافها القومية . كلها تتلخص بها دفعا لأن تبغى لنا الشر ، لأن خيرنا لا يتفق مع أطامعها ، ولأن مصالحنا تتلخص بمصالحها .

وحتى على فرض تجرد هذه الأيدي التي تكتب لنا تاريخنا من الغرض والهوى ، فإن أخطاء المنهج الذي تتبعه كفيلة بأن تشوه الحقائق التاريخية في غير صالحنا . وصالحنا في أن نرى حقيقة دورنا في تاريخ البشرية ؛ وأن نعرف مكاننا في خط سير التاريخ ؛ وأن نتبين قيمتنا في العالم الإنساني ، وليست فائدة هذا فائدة نظرية فكرية مجردة ؛ بل إنها أكبر من ذلك وأشمل ، فعلى ضوءها يمكن أن نحدد موقفنا الحاضر ، ودورنا المقبل ، وأن نسير في أداء هذا الدور على هدى ومعرفة بالظروف ، والعوامل العالمية المحيطة بنا ، وبمقدار الطاقة التي نواجه بها هذه الظروف والعوامل

ونحن ندرس في مدارسنا ومعاهدنا على وجه الخصوص تاريخاً إسلامياً مشوها ، وتاريخاً أوريبياً مضخماً ؛ لا عن مجرد خطأ غير مقصود ، ولكن عن نية مبيتة من الاستعمار الغربي الذي يهيمه أن لا نجد في تاريخنا مانعاً به ، وأن نرى أوربا على العكس هي صاحبة الدور الأول في التاريخ الإنساني فإذا يئسنا من ماضينا ، واستصغرنا دورنا في حياة البشرية ؛ وامتلات نفوسنا مع ذلك إعجاباً بالدور الذي قامت به أوربا وإكباراً للرجل الأبيض . . سهل قيادنا على الاستعمار ، وتطامن كبرياؤنا القومية ، وذلت رقابنا للمستعمرين . . وتحت تأثير هذه العوامل كتب التاريخ الذي ندرسه في مدارسنا ومعاهدنا بوجه خاص .

وإعادة كتابة التاريخ الإسلامي على النهج والنسق الذي وصفناه ، هو وحده الكفيل بأن يكشف هذه الأباطيل ، وأن يثبت حقيقة الدور الذي أداه الإسلام ، والدور الذي أدته الحضارة الأوربية ، بعد ما يصور طبيعة هذا الدين وطبيعة النظام الذي ينبثق منه ومدى ما منح البشرية من الخير والتقدم ، وضخامة الدور الذي أداه لبنى الإنسان .

والثالثة أنه ليس من مصلحة هذه الإنسانية أن ترى الحياة كلها من زاوية واحدة لا تكشف عن كل جوانبها ، وأن تسودها فكرة خاطئة عن ماضيا وحاضرها ؛ وأن تجهل الدوافع الكامنة لسيرها وتحركها ، والقيم الأساسية لحياتها وحضارتها . . وإن هذا الجهل لينشئ أخطاء عميقة الأثر لا في التصور والتفكير فحسب ، ولكن كذلك في علاقات الأمم بعضها ببعض ، وفي علاقات الكتل الدولية بعضها ببعض . كما ينشئ أخطاء بعيدة المدى في تكييف سياسة كل أمة وتوجيهها .

هذه الأخطاء ينشأ معظمها من سوء دراسة التاريخ البشرى ؛ وسوء تقدير الدور الذى قام به الإسلام ، والذى يمثل العالم الإسلامى ، هذا العالم الذى يمثل وحدة إنسانية تابعة لها كل خصائصها المستقلة ، ويمثل قوة إنسانية ثابتة لا يؤثر ضعفها العسكرى الطارىء إلا تأثيراً عارضاً فى وزنها الحقيقى .

ولهذا التصحيح قيمته فى حساب المصلحة الإنسانية العامة . وكما لأخطاء التاريخ من أثر فى إقامة الحواجز بين بعض الأمم وبعض ، وبعض العناصر وبعض ، وبعض السكتل وبعض . وكما لها من أثر فى سوء تقدير الجماعات للجماعات ، والأجناس للأجناس ، والأفراد للأفراد . فضلاً عن سوء التقدير للأفراد والمبادئ والحضارات . . وكل هذا يؤذى البشرية فى حاضرها ويؤذيها فى مستقبلها . ومن واجب القادرين إزالته وإزالة آثاره بالتصحيح الواجب ، والتعريف المستنير .

وبعد فإنه ينبغى أن يقال ، إن دراسة من هذا الطراز وعلى هذا النسق لن يكون من برنامجها تناول الحوادث التاريخية بالتسلسل الحرفى والتفصيل الوافى . فوظيفتها الأساسية أشبه شئ بوظيفة الخط البيانى ، يشير ولا يحصى ، ويرشد ولا يستقصى . . وبعبارة أخرى إن وظيفة دراسة من هذا النوع هى محاولة إيجاد عقلية تاريخية معينة ، وصورة تاريخية خاصة ، تفيد الذين يتناولون الحوادث التاريخية بالتفصيل ، والشخصيات التاريخية بالتحليل .

وما من شك أن استقرار هذا النهج فى حقل الدراسات التاريخية ؛ سيعين على وضوح خصائص الشخصية الإسلامية . والدور الإسلامى فى حياة البشرية ؛ الأمر الذى من شأنه أن تحلل الشخصيات الإسلامية بل الشخصيات الإنسانية ، فى سياق صحيح . إن قيمة هذا النوع من الدراسة أن يقيم النهج ، ويشرع السنن ، ويرسم الطريق فإذا نجح فى أداء مهمته كان ذلك توفيقاً أى توفيق (١) .

(١) أشرنا فى العدد السابق إلى أن جماعة مسلمة قد تألفت لإعادة كتابة التاريخ الإسلامى وفق هذا المنهج . وقد قسمت الجماعة حقول البحث إلى المراحل التالية : « مقدمات التاريخ الإسلامى » ، « الإسلام على عهد الرسول » . « المد الإسلامى » . « الانحسار الإسلامى » . « العالم الإسلامى اليوم » . والجماعة مؤلفة من الأساتذة . الشيخ صادق عرجون ، والدكتور محمد يوسف موسى ، والدكتور عبد الحميد يونس ، والدكتور محمد النجار ، وسيد قطب . وستقوم بطبع هذه السلسلة ونشرها دار إحياء الكتب العربية لأصحابها عيسى البابى الحلبي وشركاه . . وعلى الله التوفيق « الكاتب »

الفكر الاقتصادي الإسلامي

للأستاذ الدكتور محمد صالح

أستاذ الاقتصاد بكلية الحقوق وعميدها السابق بجامعة فؤاد

(٢)

استعرضت في المقال السابق بعض مصادر الفكر الاقتصادي الإسلامي . وسأتناول في مقال اليوم موقف هذا الفكر الاقتصادي الإسلامي من المال فأقول : إن الناس تبذل الجهود لتحصيل ما هو ضروري أو مرغوب فيه لقضاء حاجاتهم الإنسانية ، والمال هو ما كانت له هذه الخصيصة ، وقد يُظن أن المال هو النقود ، واعتباره بهذا المعنى من المعاني الثانوية ، والحقيقة أن المال كان موجوداً قبل أن توجد النقود ، وقبل نشوء المبادلة أو المقايضة بين الناس . ويشترط فيما يعد مالا أن يكون نافعا مباشرة أو بالواسطة لقضاء حاجة الإنسانية ، وأن يكون قابلاً للتملك فيخرج مالا يمكن تملكه كماء الأنهار ، والكلا ما دام أنه لم يختص به آدمي ، وأن يكون قابلاً للتمليك بعقد من عقود المعاوضات كالبيع والمقايضة ، أو بعقد من عقود التبرعات كالهبة والوصية ، أو يمكن رهنه وتأجيره وبالجملة أن يكون قابلاً لتعلق الحقوق به .

وقد مدح القرآن الكريم المال والغنى ، واعتبره من نعم الله ، وامتن الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالغنى بعد الفقر فقال : « ووجدك عائلاً فأغنى » وامتن على قوم الرسول بتوفيقهم في جمع المال من طريق تجارتهم برحلة الشتاء والصيف ، وصمى الله المال الكثير خيراً وأنه من صفات الإنسان فقال تعالى : « وإنه لحب الخير لشديد » وقال تعالى فيمن يحضره الموت : « إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين » وقال جلّت قدرته في الزينة والطيبات من الرزق : « قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

وقد راعى القرآن الكريم في مدح المال ، وتوجيه الناس بشأنه ما تطيقه الطبيعة البشرية فلم يقل : « دع ما تملك واتبعني » ولم يقل « إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » بل قال القرآن الكريم : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

وسن القرآن قانونا للانفاق وحفظ المال فنهى عن التبذير ، واعتبر المبذرين إخوان الشياطين ، وقضى بالحجّر على من يتصرف في ماله بخلاف مقتضى العقل ، وحض على القصد والاعتدال في الإنفاق ، ونهى عن البذخ .

وإذا كان الفكر الإسلامى زين للناس تحصيل المال ؛ إلا أنه اشترط تحصيله من وجوه الكسب الطبيعية كالزراعة والصناعة والتجارة ، والفلاحة أقدم الصنائع لأنها محصلة للقوت المكمل لحياة الإنسان إذ يمكن وجوده من دون جميع الأشياء إلا القوت . أما الصناعة فتقسم إلى ما هو ضرورى في العمران كالبناء والتجارة والحياكة ، وإلى ما يختص بالأفكار التى هى خاصية الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة والوراقة : وهى معانة الكتب بالنسخ والتجليد ، والغناء والشعر ، وتعليم العلم ، والجندية ، والطب والتوليد . واعتبر الفكر الإسلامى أفضل الأطباء من واطب على طبه لا يبتغى إلا الآخرة حتى لا يكون كالتاجر الذى باع ياقوتة ثمينة بخززة لا تساوى شيئا . والطبيب الذى يبتغى بطبه أجر الآخرة لا ينقصه ذلك حظه من الدنيا ، ومثله مثل الزارع الذى يعمر أرضه ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب ثم هى لا محالة ثابت فيها ألوان العشب مع باقى الزرع .

أما التجارة فهى محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء ، وذلك القدر الباقى يسمى ربحا ، وهو بالنسبة إلى أصل المال يسير إلا أن المال إذا كان كثيرا عظم الربح لأن القليل فى الكثير كثير .

ويفرق ابن خلدون بين الاتجار فى الأقوات ، والاتجار بأشياء الترف ، ويحرم فى تجارة الأقوات تخزينها ، وبيعها فى أوقات ندرتها بالغلاء ، وإن هذا التصرف مشئوم يعود على التاجر بالتلف والخسران ؛ لأن الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون اضطراراً إلى ما يبذلون فيها من المال فتبقى النفوس متعلقة بما بذلت من مال ، وفى تعلق النفوس بما لها سر كبير فى وباله على من يأخذه . أما الاتجار بأشياء الترف فلا اضطرار للناس إليها ، وإنما يبيعهم على اقتنائها التفتن فى الشهوات ، ويبذلون أموالهم باختيارهم ، ولا تتعلق نفوسهم بما أعطوه . لذلك لا يفسد ربح التاجر من هذا السبيل وقد لحظت الحكومات التفرقة بين الأشياء الضرورية والسكالية ؛ فهى تشجع استيراد الأشياء الضرورية ، وتفرض الضرائب الفادحة على الأشياء السكالية التى لا يبعث الناس على استهلاكها إلا حب الترف .

ويشترط فى تحصيل المال بأى وجه من الوجوه السابقة الذكر اتباع الطرق

المشروعة . والأحاديث النبوية كثيرة في حض الناس على تحصيل المال الحلال منها :
 « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » ، « من أكل حراماً لم يقبل منه صرف
 ولا عدل » ، « ومن لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار »
 والمال الحلال هو ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة مع مراعاة أحكام الشريعة الإسلامية .
 من أجل هذا اشترط بعض الفقهاء أن يكون التاجر ملماً بقواعد الشريعة . وقد روى
 عن الإمام الليث أنه قال : « لا يحل للرجل أن يشتغل بالبيع والشراء ما لم يحفظ
 كتاب البيوع » .

وقال الإمام محمد : « وعلى كل تاجر يحتاج لدينه أن يستصحب فقيهاً دينياً
 يشاوره في معاملاته » ، ومن ورث مالا ولم يدر من أين اكتسبه مورثه أمن
 حلال أم من حرام ولم يكن ثمة علامة فهو حلال ، وإن علم أن فيه حراماً أخرج
 مقدار الحرام بالتجسس : إما إلى مالكة إن عرف أو إلى وارثه ، فإذا كان المالك
 غير معين ووقع اليأس في الوقوف عليه ، أو تعذر الرد لكثرة الملاك وجب التصديق
 به ليصرف في المرافق العامة ، وإذا كان الوارث فقيراً فله أن يتصدق به عن نفسه
 وعياله بقدر الحاجة .

ولا يكفي أن يجمع المال على هذا الوجه السليم ؛ بل إن المالك تقع عليه التزامات
 مالية كالزكاة والكفارات المالية والصدقات ، وإنفاق المال في سبيل المصلحة العامة ،
 والدود عن البيضة والجهاد ، قال تعالى : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على
 القاعدين درجة » وقال : « الذين آمنوا ، وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم
 وأنفسهم أعظم درجة عند الله » . بل إن النبي صلى الله عليه وسلم نزع الإيمان ممن لا يطعم
 جاره الجائع فقال . وليس بمؤمن من يبيت شعبان وجاره جائع » . بل إن هذا
 يتناقض مع التضامن الإنساني والمروءة وليس من المروءة أن تكون آيتك ذهب
 وفضة ، ولكن المروءة ألا يكون جارك طاوياً .

على هذا الوجه نظم الفكر الإسلامي كيفية تحصيل المال ، وشروط تملكه ؛ فهي
 ملكية طاهرة نقية لا يشوبها غش ولا تدليس ، ولا إكراه ، ولا غصب ، وهذه
 الملكية فقط هي التي يبررها الإسلام ، وهي التي تستحق الحماية .

فالتكاليف التي فرضت على المالك ، وما يجب أن يرعاه من حسن إدارة أمواله
 تجعل من الملكية : وظيفة اجتماعية إن لم يضطلع بها المالك على هذا الوجه زالت ملكيته

وإلى هذا أشار الله في كتابه الكريم . « ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء . وإن تولوا يبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » أى وإن تولوا عن الإنفاق في سبيل المصالح العامة . وفي سبيل الله . زالت ملكيتكم . واستبدل الله بكم قومًا آخرين خيرًا منكم .

وقد قدر الإسلام أن ملكية المال متصلة بالشخصية الإنسانية . وأنها ركن الحرية الفردية والدينية . والواقع أننا إذا أردنا أن نهبط بالحرية من مجالاتها النظرية إلى مجال الحقيقة الوضعية لتجسمت في صورة « الملكية » . وتسمت باسم « الملكية » . فهذا الأعرابي الذي قال لعمر : « والله لو رأينا فيك أعوجاجًا لقومناه بسيوفنا » يعتمد في قوله هذا على حريته الشخصية التي تكفلها له ملكية ماله . وهؤلاء العلماء الذين أثبت نفوسهم أن يقرروا المظالم بل امتنعوا عن غشيان ظلمة السلاطين لم يسلوكوا هذا السلوك إلا لاستغنائهم عن أموال الدولة ، واعتمادهم على مالهم . وإليه يقول الغزالي « لا تسكن قطبا تدور عليك رحي ظلمهم ، وجسرًا يعبرون عليك إلى بلادهم ، وسلمًا يصعدون منه إلى ضلالتهم : يدخلون بك الشك إلى العلماء ، ويقتادون بك قلوب الجهلاء ، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك » . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم . « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان ظالم » . هذا الجهاد في الحق والاستقلال في الرأي لا يتأتيان إلا إذا كان للإنسان حرية توجه نشاطه الاقتصادي . وتملك ثمرة هذا النشاط .

والواقع أن العالم الآن يواجه عقيدتين . العقيدة الأولى : أن الإنسان وهو أشرف المخلوقات . وقد حباه الله بالحرية هو ثمرة بيئتين . أولهما مادية ، والثانية روحانية . والعقيدة الثانية : أن الإنسان أداة ميكانيكية تحدده الدولة وظيفته في الحياة المادية التي يحياها . وعلى رجال الدين أن يعلنوا بالقول والعمل معنى الدين ، وإعلاء شأن الله ، وأن يثبتوا أن العدل الإلهي ، ومحبة الله هما مصدران لقوة جديدة للفقراء والمساكين . وعلى أبناء الإسلام أن ينفذوا تعاليم دينهم التي خلدت له المجد ، وبهذا فقط يقضى على المادية ، وتجنب الشرور الناتجة من النظريات الرأسمالية ؛ والنظريات الاشتراكية حتى يتحقق العدل الذي يأمر الله به « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى » .

استغلال الأرض في الإسلام

للأستاذ محمود أبو السعود

مستشار بنك الدولة في الباكستان

(١) تمهيد :

الأرض معتبرة عند الاقتصاديين والناس كلهم هبة من هبات الطبيعة أو نعمة من الله على الناس أودعها خاصية الإنبات متى توفرت ظروف قليلة هيئة . ولا نحسب هذه القضية مشار جدل يحتاج إلى برهان وتديل من طريق المنقول أو المعقول . إلا أن طريقة استغلالها وتملك ما يخرج منها كان وما زال معرض أخذ ورد بين فقهاء الشرائع السماوية المختلفة وعلماء الاقتصاد والاجتماع . ذلك أن الأرض وحدها إذا تركت وشأنها أجديت وأحملت إلا في النادر القليل حين تسخو الطبيعة وتجود السماء وتغدق الشمس الدفء والحرارة وتخلو الأرض نفسها من الصخور الممتدة الصماء . نرى ذلك في بعض المناطق الاستوائية ومناطق الرعى (Steppes) . وهذا الوضع لا يعتبر استغلالاً للأرض من قبل الإنسان نظراً لانعدام عنصر العمل منفرداً أو مجتمعاً على عنصر آخر من عناصر الإنتاج الطبيعية ، أو ما يسمى اصطلاحاً برأس المال . من أجل هذا كان ذلك الإنبات الطبيعي مباحاً للجميع لا لوفرتة ولكن لطبيعته ؛ إذ أن عامل الندرة وحدها في هذه الحال لا يخلق القيمة ولا يضيفها على ناتج الأرض أو على نعمة الطبيعة وهبة الخالق . فلاجدال إذن في أن مناطق الرعى مباحة مشاعة، وغابات خط الاستواء ملك للجميع وهلم جرا . ولئن قيل إنه في بعض الأحيان يدفع المستغل لمثل هذه الهبات الطبيعية أجراً للدولة إن شاء أن يستغلها، قلنا إن الدولة تمثل الجماعة وثبت عدم انفراد شخص بأحقية التملك والاستثمار .

ما الحكمة إذن في أن الأرض الزراعية لها حكم خاص إذا خرجت في وصفها عما أوردناه في حكم الأرض التي تباح للجميع ؟ قبل أن نستعرض مختلف الردود على هذا السؤال يحسن أن نذكر مجملين التطور الذي مر به الإنسان في استغلاله للأرض حتى تكون القاعدة العامة لمناقشة الموضوع متفقاً عليها . فلاشك في أن الإنسان في أدواره الأولى حين اكتشف الزراعة لم يكن يفكر كثيراً في معنى (ملكية)

الأرض أو تأجيرها نظراً لوفرة المساحة القابلة للزراعة بالنسبة لمن يريد استغلالها . ثم أتى طور استقرار فيه الناس وأوجب الاستقرار وجود علائق بين الفرد والمكان الذي استوطنه . وأهون مثال بناء السكن على وفق ابنتي الفرد لنفسه مسكناً صعب عليه هجرانه ، ولزم — إن كان من أهل الزراعة — أن يتقيد ببعض الشئ ، بمساحة معينة قريبة من مسكنه ينتقيها من بين مختلف المساحات . وطبعي أن انتشار العمران ليس إلا مرادفاً لمعنى الاستقرار والاستيطان . ونظراً لأن القوة الإنشائية للأرض محدودة ، ولأن المساحة المحيطة بالمكان العمور محدودة وجد التنافس على ملكية الأرض ، وبدأ لكل فرد أن يستأثر بأوفر المساحات إنتاجاً . هذا الاستئثار هو مبدأ النزاع . وإن لم يكن سببه — وهو مصدر الخلاف بين العلماء في مشروعية تملك الأرض وأحقية العمل فيها لاستنباتها . هذه الصورة المجتمعة فصلها كثير من علماء الاجتماع والاقتصاد في كتبهم ، ولا نكاد نجد خلافاً بينهم في سباق التطور البشري المنطور إليه من ناحية استغلال الأرض الزراعية . أما الخلاف كل الخلاف فهو ما سند الملكية في الأرض إن جاز أن تملك الأرض إطلاقاً ؟ هنا نجد بعض الغموض والاضطراب في التاريخ والتعليل سوياً ، فهل ياترى امتلكت الأرض الزراعية أول ما امتلكت بحق السبق في وضع اليد ؟ أم هل كانت الملكية نتيجة غضب لمن غصب ؟ أم أن الأرض في وقت من الأوقات لم تكن تصلح لإنتاج مريح مالم يبذل فيها رأس مال غارق ، فمن استطاع بذل رأس المال هذا استحق أن يملك الأرض بحق ما بذل فيها وصار بالضرورة جزءاً لا يتفصل عنها ؟ أم هل الملكية الزراعية في أصلها نتيجة لهذه العناصر مجتمعة أو لبعض منها آناً وللبعض الآخر أحياناً ؟ ليس هناك رد صريح قاطع على هذا السؤال . ولو استطعنا أن نقطع برأى فيه لسهل البت في مصير الملكية الزراعية . ولكن الواقع أن التاريخ البشري لا يرسم صورة واضحة للملكية . وكل ما يقال في هذا الصدد ليس إلا تكهنات واستنباطات إن استند على بعض الوقائع فانطبق على بعض الحالات فإنه قطعاً لا يثبت أمام وقائع أخرى ، ولا يتفق مع كثير من الحالات . ونحسب أن هذه القضية أيضاً مسلم بها ولا تحتاج إلى برهان أو تدليل تاريخي .

على أن مسألة الملكية الزراعية ظلت هادئة عصوراً طويلة وأثنى أثار بعض أطرافها فلاسفة اليونان في كتبهم النظرية فإنها لم تكن مشكلة عملية — فيما نعلم — في ذلك العهد ، ولم تكن قائمة أصلاً في عهد الرومان ولا فيما ولها من العصور الوسطى . وأول مشار للقضية كان في العصر الإسلامي الأول لما تميز به من حرية الرأي وتطبيق الرأي على واقع الحياة . وسنعرض لهذا تفصيلاً فيما بعد إن شاء الله . حتى إذا سقطت

الامبراطورية الرومانية وكان عهد الإقطاع بقيت مشكلة الأرض نائمة وإن دخل فيها عنصر القوامه الربانية ، ثم حدثت من بعد الثورات الفكرية العنيفة وولدت الاشتراكية المتطرفة نتيجة للتغصب المتطرف ، ثم أخذت هذه الاشتراكية تتشكل وتتطور وتلبس أثواباً متباينة ، ليس يعيننا منها في هذا البحث إلا الاشتراكية الزراعية ، وهي فكرة مضمونها أن الاشتراكية لا تصلح إلا في ملكية الأرض وسند القائلين بها واه ضعيف إذ أنهم عللوا نظريتهم بالأنتاج إلا ما تخرجه الأرض وأن ماعدا هذا لا يعتبر إنتاجاً ، كما يقولون إن الأرض هبة من الله وليس للانسان يد فيما تنبت ، فليس الفرد والحالة هذه أن يستأثر بغلة الأرض إذ في هذا تحكّم فيما لا يملك الفرد ولم ينتج . وليس شك في أن هذا التعليل ساقط من ناحيته الاقتصادية ، فليس الإنتاج قاصراً على الاستغلال الزراعي وما تنبت الأرض ، كما أن الأرض وحدها دون عمل لا يمكن أن تكون منتجة بالمعنى الاقتصادي .

تطورت بعد ذلك المذاهب الاقتصادية وأخذت جميعها تنحو منحى الاشتراكية التي تهيمن فيها الدولة على أكثر المرافق الإنتاجية عموماً ، وعلى هبات الطبيعة بوجه خاص . ونظراً للتطور الصناعي في العصر الحديث انصرفت الهمم إلى المشاكل الصناعية أكثر من انصرافها إلى المسائل الزراعية ، وغلب هذا الوضع سيادة المثل الأعلى المادي وتركز النشاط الاقتصادي في الإنتاج الصناعي وسيطرة الدول الصناعية الغربية على باقي العالم ، واجتهاد هذه الدول القوية المستعمرة في أن تبقى الدول الصغيرة الشرقية بعيدة عن المجال الصناعي لتظل مستعمرة خاضعة لها إن لم يكن سياسياً فاقصادياً على الأقل . وهكذا نجد أن مشكلة الملاك الزراعي ليست بذات بال في العالم الغربي وهو الأكثر ثقافة ومدنية . ولا نكاد نجد في التاريخ الحديث فيما بعد الحرب العالمية الأولى نزاعاً يستحق الذكر حول هذا الموضوع اللهم إلا ما حدث في روسيا السوفيتية وذلك لظروفها الخاصة بها . ويتلخص هذا النزاع فيما قام بين الدولة الشيوعية وبين طبقة الملاك (Kulaks) من مشادة حول ملكية الأرض وزراعتها . ومعلوم أن السوفيت أرادوا أن تعتبر الملكية خالصة للدولة من دون الأفراد . ومذهبهم في ذلك مشهور يقوم على وجوب إلغاء الطبقات وعلى تقويم الطيبات (Goods) على أساس ما يبذل في إنتاجها من عمل ، كما ينادى بوجوب إبطال الكسب دون عمل حال ، أو بلفظ آخر عدم الاعتراف بمشروعية الكسب الناتج عن ملكية مصدر من مصادر الإنتاج إلا العمل ، أما امتلاك العقار إطلاقاً أو رأس المال فلا يبرر الكسب في مذهبهم . كذلك من المعلوم أن ظروف السوفيت في ذلك الوقت ، وعداء العالم لهم دفعهم إلى التخلص من الملكية الزراعية

بشمن يعتبر من أغلى الأثمان إذ اضطروا إلى ذبح حوالي ستة ملايين من مواطنهم حتى يخلو لهم وجه الأرض وتنقرض طبقة الملاك .

أما في الشرق عموماً فالملكية الزراعية كما أسلفنا هي عماد الحياة ، ولذلك فليس عجباً أن نراها محور النزاع بين المفكرين والسياسة العاملين والاجتماعيين على السواء . ومما من دولة من هذه الدول إلا وفيها خلف شديد ونزاع محتدم حول تكييف هذه الملكية وتنظيمها وتنظيمها وهذا ما حدا بنا إلى كتابة هذا البحث خصوصاً وأن الدول الإسلامية لا تكاد تستبين وجه الحق الذي قرره الحق تبارك وتعالى في شريعته في هذا الخصوص . أضف إلى هذا أن فقهاء الشريعة المتقدمين قد اختلفوا كل الاختلاف في تحديد شكل الملكية الزراعية ، وفي طريقة توزيع ناتج الأرض حتى إن بعضهم ليحلل الذي يحرمه البعض الآخر ، وفي هذا ما يدعو إلى تعقد المشكلة وصعوبة حلها على أساس الشريعة الإسلامية .

على أن هذا الاضطراب الفقهي كان أكبر حافز لنا على استقصاء الحقيقة ومعرفة قصد المشرع ليقيننا أن الإسلام دين كامل شامل ، ولا ينبغي أن يترك الدين مثل هذه المسألة دون رأي قاطع تتبدد معه ظلمات الشبهات والريب ، ولئن اختلف الفقهاء في تفسير بعض الوقائع التاريخية التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي تأويل بعض الأحاديث الشريفة ، فليس هذا لقصور في التشريع ، ولكنه فيما نرى أمر طبيعي اقتضته ظروف المفسرين وملابسات البيئات التي عاشوا فيها ، فإن قبلنا اجتهاد السابقين في التفسير والتأويل كان نعم بنا أن نجتهد نحن لنفسر ونؤول بما يتفق وظروفنا وبيئاتنا دون إخلال بالأصول أو تجن على روح التشريع أو خروج على قواعده الأساسية . بهذه الروح نكتب هذا البحث تباعاً ، والله ولي التوفيق .

حَاجَةُ الْإِنْسَانِيَةِ لِلْإِسْلَامِ

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة المساعد بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول

هذا الإنسان ، وهو ذرّة من ذرّات العالم ، يعجز عن إدراك الغاية من وجوده ، وما فيه الخير له ، لو وكل إلى نفسه . لهذا ، لم يتركه الله سُدًى وَلَقَدْ ضَاعَا ، بل زوده بالعقل يهديه سبيل الخير ويقفه على النهج الواضح . وبهذه الأداة الربانية حاول أن يعرف الكون ومركزه منه ، والغاية التي يجب أن يستشرف لها ، ومن ثم ، كان تراث الإنسانية ، قبل عهد النبوات . من النظم والآراء والأفكار في الدين والاجتماع ونواحي المعرفة الأخرى .

إلا أن هذا العقل قد يضل ، ويضل كثيراً ، إن حاول الوصول لإدراك ما ليس في طاقته ، وبخاصة العالم الأعلى وما يتصل به . ومن أجل ذلك ، كان ما نعرف من الفلسفات الإلهيية للأمم التي حرمت نور الوحي الإلهي ، في بلاد الشرق واليونان وغيرها . هذه الآراء التي ليست إلا سخرية بالعقل السليم ؛ إذ تجعل من البشر ، بل من الحيوان والجماد آلهة ، وتجعل الآلهة تتحاسد وتتجارب في سبيل حطام هذا العالم الفاني .

لكن الله عادل حكيم ، يعرف أن الإنسان لا شيء إن تركه إلى نفسه وعقله ، وأن من العدل — ليكون الإنسان مسئولاً عما يفعل . وليحقق الغرض من وجوده — أن يبين له الرشد من الغي ، ويفصل له بين الحق والباطل ، وكان هذا على ألسنة من اصطفاهم من خلقه ليكونوا حاملي رسالاته ، هذه الرسائل التي رأيناها متدرجة لتتفق كل منها وعقلية الجيل أو الأمة التي جاءت لها .

لهذا رأينا الدين يحىء في أثر الدين ، والرسول يتبع الرسول ، وكل دين له ناسه المحدودون وزمنه الموقوت ، حتى بعث محمد عليه الصلاة والسلام بدين الناس جميعاً والإنسانية عامة ، وذلك حين قضت الضرورة المطلقة بإرساله ، وكان لا معدى عن بعثته ليخرج العالم كله مما كان يتخبط فيه من ظلم وضلال وباطل ، ولولا هذه الضرورة المطلقة ، ما اتصلت السماء بالأرض برسالة جديدة ؛ هذا الاتصال الذي هو خرق

لقوانين الطبيعة ؛ فلا يكون إلا عند حاجة البشرية الملمحة المتلهفة لدين جديد .

نعم ! كان العالم كله في حاجة ماسة لدين جديد بعد أن خفت صوت الرسل السابقين ، وضاعت معالم الرسالات الإلهية الحقبة التي أرسلها الله لعباده ، لا فرق في ذلك بين بلاد العرب موطن بيته الحرام ، وبلاد الروم للمهد الثاني للمسيحية بعد مهدها الأول بالشام ومصر وفارس ، حيث كانت الديانات المانوية والزرادشتية والزندكية ، وغير هذه البلاد وتلك من أقطار العالم المختلفة .

١ — ففي بلاد العرب ، كانوا يعبدون ما ينحتون ويصنعون من تماثيل وأصنام وأوثان ، ويتخذونها أرباباً من دون الله ؛ حتى كان الرجل منهم ، كما يروي ابن هشام في سيرته إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فجعل أحسنها في نظره له رباً ، وجعل الثلاثة الباقية أثنافى لقدرة . وبلغ من تعظيمهم للأصنام أن اتخذ أهل كل دار صنماً يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفراً سمح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله . فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، بالتوحيد قالت قريش : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجب (١) »

٢ — وفي فارس كانت الديانات الثنوية — فضلاء عن المجوسية — التي يجمع فرقها المختلفة القول بالهين : النور والظلمة ، أحدهما للخير والآخر للشر ، متعامين عن أنه ليس هناك إلا إله واحد هو الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور . وكان من هذه الفرق الضالة ، الزندكية التي كانت تدعو إلى الإباحية المطلقة ؛ إذ ذهب مؤسسها « مزدك » في جراته إلى أن « أحل النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ (٢) » .

ومع هذا الضلال في الدين والعقيدة ، باغ الظلم الاجتماعي في هذه البلاد حداً لا يطاق : لقد كان الأكاسرة يزعمون أن دماً إلهياً يجري في عروقهم ؛ فكانت الرعاية تنظر إليهم كأنهم آلهة ، ولهذا كانت تكفّر لهم وتتحمل في هذا السبيل ما لا تطيق . وبجانب هذا كان المجتمع الفارسي يقوم على نظام الطبقات ، وكانت الطبقات تقوم على اعتبار الأنساب والحرف ، وكان على كل أحد أن يقنع بمركزه الاجتماعي ولا يتشوف لما فوقه ، ولذلك كانت الهوة بين الطبقات لا قرار لها ، وكان بعضهم يتخذ من بعضهم أرباباً .

(١) سيرة ابن هشام ، طبعة مصطفى محمد ، ص ٨٦ : ٨٧

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ، نشر الشيخ أحمد فهمي محمد ، ص ٢ : ٨٥

لهذا ، لما جاء الغيرة بن شعبة للقاء القائد رستم ، وحاول الجلوس معه على سريره ، أنزلوه بالقوة ، فقال كما يرويه ابن جرير الطبري في تاريخه : « كانت تبلغنا عنكم ، ولا أرى قوما أسفه منكم ! إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محاربا لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما تتواسى . وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ، ولكنكم دعوتوني . الآن علمت أن أمركم مضطرب ، وأنكم مغلوبون ، وأن مثلكما لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » . ومن أجل ذلك ، نرى توماس أرنولد المؤرخ الإنجليزي يؤكّد (١) أن سوء حالة فارس الدينية والاجتماعية كان « علة ذلك الانتصار الذي حالف الفتح العربي ، وجعله يظهر في صورة تخلص الأهليين مما أصبحوا فيه . وما أن تم المسلمين ما أرادوا على هذا الوجه ، حتى تنفس الفرس الصعداء ورحبوا بالعرب » .

هكذا يرى هذا المؤرخ أن سوء حالة فارس الدينية والاجتماعية كانت تتطلب الإنقاذ السريع مما هم فيه ، وذلك بدين جديد معقول ونظام اجتماعي عادل . لكن ما يزعمه من أن هذا فقط كان علة انتصار العرب ، هو زعم باطل جاري فيه غيره من المستشرقين . إن الواقع الذي أشار إليه المؤلف نفسه في مواضع أخرى من كتابه ، هو أن الإسلام دين الفطرة الطبيعية السليمة ؛ ولهذا تتقبله العقول والضمائر متى تفتحت له ، وأن المسلمين كانوا يقاتلون بكل قلوبهم رجاء إحدى الحسنيين . وشتان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله وما عنده من خير ، وبين من يقاتل دفاعا عن عقيدة فاسدة ودولة عاتية ونظام اجتماعي ظالم مقبى !

٣ — وفي بلاد الروم والشرق الأدنى : الشام ومصر ، كانت المسيحية ؛ هذه الديانة السمحة في أصلها التي تدعو أول أمرها إلى عبادة الله وحده ، وما المسيح إلا كلمته ورسوله ، قد استجالت بما نالها من تغيير في أسسها إلى دين معقد لير إلى فهمه من سبيل .

لقد انقسمت الكنيسة المسيحية على نفسها إلى أرثوذكسية في الامبراطورية الشرقية ، وكاثوليكية في الامبراطورية الغربية بروما ، وكان لهذا الانقسام من الخطر وبعده الأثر أن صار كل مذهب من هذين المذهبين ديانة قائمة بنفسها ، وأن صار كل من هاتين الديانتين عدواً شديداً للديانة الأخرى ؛ إذ كان انقساماً في المبادئ والأصول

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرين ص ١٦٩ .

لا اختلافاً فقط في الفروع . وكان هذا الانقسام يرجع ، في بعض نواحيه ، إلى الاختلاف في المسيح وشخصه : أهو ذو طبيعة إلهية واحدة لا غير ، أم فيه مع هذا عنصر إنساني ؟

وبعد أن استحكمت الفُرقة بين الكنيستين ، اعتبرت كل كنيسة كلٍّ من لم يذهب مذهبها خارجاً عن الدين يجب اضطهاده وعقابه ، وكان هذا حتى في عهد جوستنيان المشرع الروماني الأشهر ، وفي هذا يقول مؤرخ إنجليزى معروف :

« وبالرغم من أن الهراطقة « يريد الزنادقة الخارجين على الدين » كانوا يؤدون ما يقع على المواطنين من أعباء ، فقد حُرِّم عليهم التمتع بامتيازاتهم ، وحرِّمت عليهم قوانينه « يريد قوانين جوستنيان » الاشتغال بالمهن الحرة ، بل تقرر هدم كنائسهم ، وأغلقت دونهم الاجتماعات العامة . فأصبح المنشق منبوزاً من المجتمع (١) » .

وكان من هذا كما يقول نفس المؤلف في موضع آخر (٢) ، أن « شعر الناس أن الحياة المسيحية أخذت تفقد مُثلها العليا المنشودة ، فأخذوا يجاهدون في سبيل الإفلات من عالم لا يحتمل في نظرهم ، وامتلات جنبات صحارى مصر بطالبي العزلة الذين ييغون الوصول إلى الله .

ومن الطبيعي أن يستتبع هذا الفساد في العقيدة وتلك الفرقة في الدين والاضطهاد للخارجين على المذهب الرسمي ، الانحلال في الأخلاق ، والفساد في الإدارة ، والظلم في المجتمع ، هذا الظلم الذي كان الغنى يستطيع تجنبه بفضل جاهه وماله .

هذه الوجوه من الفساد التي ذكرنا بعضها وأشرنا إلى بعضها الآخر ، كان لها بلا ريب أثرها الكبير في تقبُّل الإسلام في كثير من نواحي الامبراطورية الرومانية بقبول حسن من المسيحيين أنفسهم ؛ إذ وجدوا فيه مُتنفساً لهم ، مخلصاً مما كانوا فيه من عنث وكرب . وفي هذا ، ننقل كلمة عن كتاب توماس أرنولد السابق ذكره (٣) :

« كان أئمة اللاهوت في إفريقية والشام « وفي سائر بلاد المسيحية طبعاً » قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة . . . وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون

(١) الامبراطورية البيزنطية تأليف نورمان بينز وترجمة الدكتور حسين مؤنس وآخر ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) نفسه ، ص ١١٠ .

(٣) الدعوة إلى الإسلام ، ص ٦٧ - ٦٨ .

زمرة من الشهداء، والمديسين والملائكة . كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد ، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب ، ولم يكن للعبيد أمل في حاضرهم ولا مستقبلهم ، فأزال الإسلام — بعون الله — هذه المجموعة من الفساد والخرافات . لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة ، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى ، ولقد بين أصول الدين التي تقول بوحدانية الله وعظمته ، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه . وأعلن أن المرء مسئول ، وأن هناك حياة أخرى ويوماً للحساب ، وأعدّ للأشرار عقاباً أليماً ، وفرض الصلاة والزكاة وفعل الخير ، ونبذ الفضائل الكاذبة ، والجدل الديني والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة . وسفستة المتنازعين في الدين ، وأحل الشجاعة محل الرهبة ومنع العبد رجاء الإنسانية إخاء ، ووهب الناس إدراكاً للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية .

« ولنضف إلى ذلك أيضاً ، أن الإسلام قد نظر إليه بعض الباحثين على أنه رد فعل ضد النظام الكنسي البيزنطي الذي كان يمثل الامبراطور ورجال بلاطه صورة من الجلالة الإلهية في الأعلى . وفي عهد جستنيان ، نرى هذا النظام يزداد تسعفاً ، حتى يستحيل استبداداً يحجم بأثقاله الحديدية على رجال الكنيسة والعامّة على السواء . والآن ، بعد أن شهد شاهد ، بل أكثر من أهلها ، نعتقد أنه أصبح واضحاً تماماً أن الحالة الدينية ، فضلاً عن الحالة الاجتماعية الظالمة ، التي كانت عليها البلاد المسيحية قبل الإسلام وإلى أن بزغت شمس ، كانت تتطلب إنقاذاً سريعاً ؛ إنقاذاً يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الظلم إلى رحابة العدل ، فكان هذا الإنقاذ هو الإسلام .

وبعد : هذا هو الإسلام الذي تطلعت إليه الإنسانية وظفرت به ، الإسلام آخر الأديان السماوية ، فليس لنا أن ننتظر ديناً آخر تأتى به السماء ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الرسل ، فليس لنا أن نرجو رسولا آخر من لدن الله . ما الذي نرجوه إذاً والأمر على ما ذكرنا لإصلاح هذا العالم الذي نعيش فيه بصفة عامة بعد أن أفلست كل نظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والعالم الإسلامي بصفة خاصة ؟ إنه لا شيء غير هذا الإسلام نؤمن به حقاً ، ونفهمه حقاً ، ويكون لنا منه دعاة وزعماء مخلصون ، دعاة وزعماء يجعلون حياتهم وقفاً على الدعوة له ، ويرون سعادتهم في القيام به ، ويكونون في سرهم وعلايتهم مثلاً علياً تدعو وحدها للإسلام .

لقد سئمنا والله ، سماع ما يذيعه أقوام « بالراديو » ، وما يكتبه البعض في الصحف ، دعوة للإسلام ومثله وللقتال في سبيل الوطن ، وحلاوة الاستشهاد من أجله سئمنا الكثير من هذا ، لأنه كلام لا يصدقه فعل ، ودعوة باللسان دون القلب . وصرنا جميعاً نتشوف إلى زعيم ديني وطني يجمع شباب الأمة تحت راية الإسلام ، هذا الشباب الذي تشمله هذه الأيام حالة نفسية تجعله يستجيب سريعاً للزعيم الذي يؤمن به ، فمن هو الزعيم المنتظر ، وكيف لنا أن نظفر به ؟ قد يكون ذلك موضوع كلمة أخرى إن شاء الله تعالى .



هكذا حكموا...

لما حبس معاوية عن الناس أعطياتهم قام إليه أبو مسلم الخولاني ، وهو يخاطب فقال : يا معاوية ؛ إن هذا المال ليس لك ولا لأبيك وأمالك فلم حبست عن الناس العطاء ؟ فغضب معاوية ثم نزل فدخل وأومأ إلى الناس أن تثبتوا ولا تنفروا . ثم خرج فعاد إلى المنبر وقال : أيها الناس ، إن أبا مسلم قد قال ما قال فوجدت لذلك ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا غضب أحدكم فليغتسل » . وصدق أبو مسلم ؛ فاغدوا على أعطياتكم فخذوها على بركة الله .

من دستور كافلنا الاجتماعي

«والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم»

أموالهم :

في هذه الآية الكريمة يذكر الله تبارك وتعالى المال مضافاً إلى أصحابه فيقول :
«والذين في أموالهم . . . »

وقد يسبق إلى وهم بعض الناس أن هذه الإضافة تفيد ملكية الأموال لمن أضيفت إليهم ، وهو خطأ لا بد من التنبيه إلى صوابه : فالمال مال الله ، هو الذي خلقه واستخلف فيه عباده .

هكذا قرر الدين ، وقرر العقل ، وقرر علماء الاقتصاد الذين لا يعرفون غير الأرقام ولغة الواقع فقالوا : إن الناس لا يخلقون الثروات وإنما تخلقها الطبيعة . . . فإضافة الأموال إلى أصحابها تعبير عن الحياة فقط ، لأن ملكية الإنسان لماله إنما هي حياة طارئة على ملكية الله سبحانه ، فإذا سميت هذه الحياة ملكية فهي تسمية مجازية مبنية على المساهلة ، لا تندفع الملكية الأزلية الأولى المقررة لله رب العالمين

حق معلوم :

وفي الآية ذكر لكلمة « حق » . . . والنظر يتناول هذه الكلمة من نواح عدة : الأولى : من حيث أن هذا الحق مقرر في أموال الأغنياء « في أموالهم حق معلوم . . . » والحق في المال يحمل معنى الإلزام - لا معنى التطوع - كما يجب أن يفهم عبّاد أنفسهم . . . ونبادر هنا فنقول : إن القرآن الكريم وسنة الرسول عليه السلام سمّيت هذا الحق « صدقة » وسنعرض فيما بعد - إن شاء الله - لبيان حقيقة هذه الكلمة ، فقد ظلمها الاستعمال حتى فقدت ما وضعت له في اللغة وفي الشرع ، وصارت علماً على فئات حقير يلقيه بعض السادة لمن يتضعض لهم ويذل نفسه لكبريائهم . . . فسيد متفضل في جانب ، وذليل مهين في جانب آخر

لا . . . إن الإسلام لم يرد قط بالصدقة هذا المعنى ؛ وإنما أراد معنى آخر ينشرح له صدرك - - إن شاء الله - حين نعرض لبيانه . وقد عجلنا هذه الإشارة هنا لنمحو ما قد

يكون في ذهن القارىء، أو في نفسه من الموجدة على هذه الكلمة ، وليعلم مقدما أنها لاتعنى إلا « الحق » . والحق غير التفضل وغير الطوع ، ولا معنى للحق إلا أن يتقاضاه صاحبه بالإلزام ، ويستخلصه بكل وسيلة مشروعة كما يستخلص أى حق آخر .

وإذا كانت الأوضاع الاجتماعية قد طغت بفسادها وجودها على هذا الحق فضيحت معاملته ، وأزالت معناه من أذهان الناس ، ومحت وجوده في نصوص القانون ، وبددت ماله من سلطان وقوة في العرف والعقيدة ؛ فإن عمل المفسدين لم يكن في يوم من الأيام شرعا يتبع ، أو حجة تسوغ اغتصاب الحقوق وأكل أموال الناس بالباطل . . فالحق حق ، أسكره الناس أو أذعنوا له .

قدسية الحق وجلالته :

أما الناحية الثانية التي ننظر منها إلى كلمة « حق » فهي ناحية « القدسية » فالحق حين يجرى على لسان نبي يكون له من القدسية والجلالة ما لا تجده حين يجرى على لسان إنسان من الناس .

ولقد ابتعد الناس عن سلطان الدين وقديس الأنبياء ، انساقوا فيما يسمونه « التيار المدني » فكانت لهم قوانينهم المدنية ، وحقوقهم المدنية . . ولا ندخل بك في مقارنة بين معنى الحق في الاصطلاح المدني ومعناه حين يقرره الأديان ، ولكننا نلفت النظر إلى الفرق الشاسع الذي تحسه الضمائر والأذهان حين ينطق نبي من الأنبياء بمعنى الحق وحين ينطق به بوق من أبواق المدنية في سوق من الأسواق أو محكمة من المحاكم .

فإذا عرفنا أن الأنبياء لا ينطقون عن الهوى ، ولا يقررون إلا ما يوحى إليهم من ربهم ؛ فإن معنى الحق يزداد رسوخه في أعماق النفوس وتعظم جلالته في طوايا الصدور وشتان بين كلمة ينطق بها بشر مخلوق ، وحق يقرره الذي خلق السموات والأرض بالحق وسمى نفسه الحق ، وجعل الحق ناموس الصلاح والإصلاح يجرى بمشيئته إلى ما فيه الخير العام ، لا يتبع هوى إنسان ولا ينحرف عن سننه مرضاة لمخلوق ، فإن صلاح الكون هو مقتضى حكمة سبحانه : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن »

هذا شأن الحق حين يقرره الله عز شأنه ، ويرسل به الرسل ، يستمد جلاله وقدسيته من نسبته إليه سبحانه ، وترتبط حكمة أهدافه بحكمة الله الذي لا يعيب ولا يلهو ، ويمضى إلى غايته بقوة الله الذي أراد : « وكان أمر الله قدرا مقدورا » . وحسبك أنه

هو الوحدة الكبرى التي تدار عليها مقادير السموات والأرض . فلو انحرفت نوااميس هذه الوحدة مثقال ذرة عن منهاجها المرسوم استجابة لهوى أحد من الناس لما فسد الناس وحدهم ، ولما فسدت الأرض وحدها ؛ وإنما فسد الكون كله بأرضه وسمواته ومن فيهن من إنس وجن وملائكة ومن لا يعلم كنهه إلا الله . . وحاشا أن يكون ذلك !

فقدسية الحق التي نعنيها لا تستمد معناها من مجرد العاطفة فحب ، بل تستمده كذلك من تصور المعنى الأصيل الذي يجمع أطراف الكون كله في قبضة ناموسه الهائل ، ويريك أفراد السكائن سابحة في أفلاكه إلى الغاية العليا ، فإذا بدا لأحد من البشر أن يشد عن فلكه فلن تبكي عليه السموات والأرض ، ولن تجرى وراءه تلك المجموعة الضخمة من السكائن والنوااميس ، ولن يلقى إلا ما يلقاه أي كوكب شدة عن مداره من الضلال والاصطدام والتحطم : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما إلا عيين » . « ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، والذين كفروا عما أنذروا معرضون » .

فالأمر على هذا أمر خطير ، وسر رهيب جليل ، وقول فصل ليس بالهزل ، وهو ما أردنا أن نلفت إليه النظر . فإذا كانت المحاكم تنصب والموازن تقام لأى التزام مدنى تقرره وثيقة من الوثائق ، فانظر ماذا يجب علينا تلقاء حق جاءنا من عند الله وامتدت عروقه حتى اتصلت بسائر نوااميس السموات والأرض ؟

. . . إنه إذن أمر فوق التطوع والتفضل . . . إنه الأمر اللازم والفريضة المحتومة مادامت الفريضة لا تعنى إلا أن نفساق في تيار المشيئة العليا التي توجه نوااميس هذا الكون . . . مشيئة الله وحده سبحانه عز شأنه .

المنطقة الحرام :

أما الناحية الثالثة من نواحي هذا الحق فهي ناحية اتصاله بأموال الأغنياء . فالله سبحانه إذ جعله فريضة محتومة لم يجعله أمراً تعبدياً خالياً من الحكمة ، أو عبارة أخرى لم يلقه على الناس مفرماً كالحق خالياً من المسوغات . . . بل ألقاه عليهم وهو صاحب المال المتفضل به . . . ألقاه عليهم وهم أمناء المستخلفون على ما في أيديهم من ثروة . « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . . . ألقاه عليهم وهو يعلم وهم يعلمون أنه صانع الثروات ، وأن جهد أحدهم فيها لا يبلغ أن يصنع لنفسه شربة ماء فما دونها : « أفرايتم الماء الذين تشربون ، أنتم أنزلتموه من الزن أم نحن المنزلون ؟ »

إن حقيقة الإنتاج في هذه الأرض تتخلص في أن الله هو الذي « ينتج » ونحن نستهلك : أى أن جهود البشر في هذه الثروات لا تتعلق أبداً بالإنتاج ، وإنما تتعلق بالاستهلاك أو تهية الأشياء للاستهلاك كما يهيا الخشب والحديد ونحوهما ليصير متاعاً يرتفق به الإنسان فيما يريد .

لجهود الناس في تحصيل الخيرات وسائر ما في الأرض من ثروات جهود لا تستوجب الملك المحض ، بل تسوغ الحيازة فقط ، وتدع حق الملكية للخالق الأول جل شأنه . . فإذا أباحهم أن يتصرفوا في هذا المال تصرف المالك الحكيم فيما يملك فهو محض فضلة وسعة كرمه . . وإذا ما أوجب عليهم في هذه الأموال حقاً فهو أمر له كل المسوغات المعقولة ، وليس لأحدهم أن يقابله إلا بالشكر والثناء على ما أنعم ، والرضا بما أمر وشرع وأوجب . . ولا يستطيع إنسان أن يتصور — في ضوء هذا المعنى — مسوغاً معقولاً يسول لأولئك المطموسين أن ييخلوا على الله بما آتاهم من فضله ، إلا أن يكونوا قد وقعوا تحت سلطان النفس الأمارة بالسوء الشحيحة بالخير : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فتكف من ييخل ، ومن ييخل فإنما ييخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء » .

وإننا لنملك أنفسنا في هذا المقام عن الاسترسال فيما أوقعت بنا هذه النفوس الحسيسة ، وشرعت لنا من اللؤم والحسة والبخل شرعة أوغرت الصدور وسأقت الضعفاء قوافل مسخرة لخدمة الأنانية ، وعبيداً مرهقين بقسوة إله الترف الذي لا يشبع ولا يقنع . لا نسترسل إلى ذلك بل نبرز ذلك اشدوذ الذي يجنح إليه البخلاء ، إذ يفضل الله عليهم فيبيحهم نعمته دون أن يروا له حقاً عليهم في شيء . . . وهو إذ يطلب لا يطلب إلا جزءاً يسيراً قد يبلغ العشر مما وهب لهم وملكهم إياه ، فكيف لو ألقى إليهم أمراً يستنفد كل ما أعطاهم ، ويستأصل ما وضع في أيديهم من مال ؟

إنه سبحانه لم يفعل ذلك ، ولم يطلب من هؤلاء إلا أن يدركوا علاقة الثروة بالله أولاً ، وعلاقتهم بها ثانياً ليعرفوا على ضوءها مبلغ السباحة الغامرة التي يفيضها الله عليهم . فإذا أدركوا ذلك وسرى نوره في ظلمات طباعهم الكثيفة كان إيمانهم بالله في ميدان الثروة والمال مبنياً على أسس فطرية معقولة ، وكان أمره بالفريضة أيسر على نفوسهم من أن يكون مغرماً إن لم ترفيه معنى من معاني الغنى .

فهما قلبنا الأمر على وجوه المنطق السليم ألفينا هذه الفريضة المالية مستندة إلى

أوضح المسوغات المعقولة ، بل ألقيناها مستندة إلى فضل الله ، إذ وهب الكثير واحتفظ في هذه الهبة بنصيب يسير قرر أدائه لمن يشاء من عبادته ، فكانته قال لعبدته : « وهبت لك كذا من المال إلا عشره أو نصف عشره أو ربع عشره فاعليك أداء هذا النصيب إلى من أسمى لك من عبادي ، وهذا معنى قوله تعالى : « في أموالهم حق » أي أن في هذا المال المباح لصاحبه منطقة حراماً أو حصة ليست له حقها ، بل هي حق غيره .

والناحية الرابعة أنه معلوم . . .

وهذه الآية الكريمة التي صدرنا بها هذه الكلمة مكية نزلت بمكة ، والمعروف أن الزكاة فرضت بالمدينة في السنة الثانية من الهجرة . أي أن مبدأ الزكاة تقرر في مكة ثم ترك تفصيله وتبيين أحكامه وتنظيم جبايته ومصارفه إلى الوقت الذي يكون فيه للإسلام دولة قائمة ومجتمع مستقر ، أو في سبيل الاستقرار .

وإذن فلما أن نقف عند قوله تعالى : « حق معلوم » لنسأل : ما معنى أنه معلوم مع أن الرسول لم يحدد مقاديره إلا بعد نزول الآية الكريمة بسنوات كثيرة وانتقاله من مكة إلى المدينة ؟

لقد ظل المسلمون يقرءون هذه الآية زمناً طويلاً قبل أن تبين لهم أنصبة الزكاة ، والمقادير الواجبة في كل نصاب ، فماذا كانوا يفهمون من كلمة « معلوم » ؟

الواضح الذي تقبله العقول من غير تعسف أنهم كانوا يفهمون كلمة « معلوم » على أنها صفة للحق نفسه . وليست وصفاً لما يتعلق به من أنصبة ومقاديره وأوقات أدائه ومصارفه ونحوها . . فهو حق معلوم أي متيقن ، لأن من معاني العلم اليقين ، كما أن من معناه المعرفة . واليقين هنا أولى لأن الإسلام يهدف في تقرير أحكامه الهامة إلى أن تكون كلها في منزلة اليقين ، فالحق المعلوم هو الحق المتيقن الذي تسلم به النفوس ، كما تسلم بكل أمر واقعي يقيني دون أن تجعله موضعاً للتردد أو المراء .

وضرورة النص على هذه « المعلومية » أن الحق تنكره النفوس وتجده الطباع وتفر منه لا لأنه باطل ، بل لأنه ثقيل التكليف . . وكثير من الناس يكون مديناً لآخر بدين يشهد به من الخلق ما لا يحصى ، ولكنه يلتوى في الإذعان له ، ويسلك كل سبيل للمطل والهرب من الأداء وليس ذلك من صفات المؤمنين ، بل هو من صفات المشركين والدينار والدرهم ، وهي عبادة لا تجدها إلا في الطباع المظلمة ، والنفوس

الكثيفة . فما لم يكن لهذه الطباع إذعان فطرى للحق .. إذعان اختياري مجاله المسارعة إلى أمر الله في نشاط ويسر ورغبة ، ومصدره اقتناع الطبع — إذا صح أن يكون للطبع اقتناع — فلن يكون الحق معلوماً أو متيقناً لدى أحد من الناس .

إن الإنسان قد يحجم عن الواجب لا لأن العقل ينكره أو يقتنع بخلافه ، بل لأن الطبع لا ينشط له . تلك الحالة التي تجعل للطباع أحياناً سلطاناً فوق سلطان العقل ، وأحكاماً ترجح أحكامه هي التي سميناها اقتناعاً . فإذا اقتنع الطبع بوجوب حق من الحقوق الإلهية فذلك صفوة الإيمان وحقيقة اليقين ، وهو التصديق القلبي الذي نقرؤه في كتب الدين . ويكون معنى ذلك أن العقل والطبع قد اتفقا على حكم من الأحكام وهذا هو الذي تؤيده كلمة « معلوم » التي وصف بها الحق ، وهو الذي جعلنا نفسر « العلم » هنا بأنه اليقين .

فليس العول عليه أن يستقر هذا العلم في الذهن ، بل أن يتقرر كذلك في الطبع فيكون متقبلاً لديه معترفاً به منه ، وتلك منزلة لا يبلغها المرء إلا إذا تحرر طبعه من عبادات الأنانية والأهواء الفاسدة ، وغداً محكوماً بقوانين عبادة الله وحده .

وحين يصبح الحق معلوماً هذه « العلمية » لدى المؤمنين ، متيقناً في طباعهم على هذا النحو فقد استغنى المجتمع عن القوانين الرادعة ، وصار أداء الحقوق موكولاً إلى قوى خفية في النفس أقوى من كل ما وضع البشر من قوانين .

السائل والمحروم :

وهذا الحق المعلوم ذكر القرآن أنه « للسائل والمحروم » أي أن أصحابه الشرعيين هم كل من يصدق عليه أنه سائل أو محروم .

والسائل ليس هو الذي احترق الشحاذة وأخذ يدور في الشوارع ، أو يمر على المنازل والأندية يضايق الناس بصفاقته وإلحافه في الطلب في ذلة وتضعع .. فبحال أن يقرر الشارع لهؤلاء المحترفين حقوقاً في أموال الناس . . .

وإنما السائل الذي يعنيه الشارع الحكيم هو ذلك العزيز الذي اضطرت ظروفه الاجتماعية أن يحتاج مؤقتاً إلى المال : فهذا الذي انقطع به السبيل عن ماله لبعده عن موطنه وألقى نفسه مضطراً إلى ما يسد حاجته ويباغ به مأمته وموطنه هو بمن يشملهم وصف « السائل » ولو كان عليه من جميل الثياب ما عليه ، بل لو كان ممتطياً صهوة جواد أصيل كما قال عليه السلام : « للسائل حق ولو جاء على فرس » . ومن الناس من

تدفعهم الأريحية إلى التوفيق والمصالحة بين الناس . وقد يكلفهم السعى الحميد أن يلتزموا التزامات مالية لا تطبيقها إمكانياتهم ، فلا بأس بأحدهم حينئذ أن يسأل المعونة على هذا المقصد النبيل .

ومن هنا نرى الإسلام يخرج بمعنى السائل من هذا الاصطلاح المهيمن الذى يجعل صاحبه آفة اجتماعية إلى أفق فسيح من الكرامة والتعاون على مكارم الأخلاق وكل سؤال فى غير ضرورة ملحة أو مكرمة ظاهرة فهو سحت ودناءة .

أما المحروم فهو كما ترى وصف عام ، ولهذا ذهب العلماء فى تفسيره مذاهب شتى ، حتى قال الإمام الشعبى : « أعيانى أن أعلم ما المحروم » . وذهب ابن جرير إلى أن المحروم هو الذى لا مال له بأى سبب كان ، سواء كان لا يقدر على الكسب أو هلك ماله بآفة أو نحوها

وقالت عائشة : « هو المحارف الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه » . والمخارف بفتح الراء : هو من استغفلت أمامه أبواب الرزق ، فإذا استعصى عليه أن يلج أحدها مال عنه إلى آخر ؛ جاء فى المصباح المنير : « المخارف هو الذى حورف كسبه فميل به عنه » . وأنت قد رأيت عائشة رضى الله عنها تصفه بأنه الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه . وعن ابن عباس ومجاهد : « المحروم هو المخارف الذى لا كسب له ، ولا حرفة يتقوت منها » .

وقال الضحاك : « المحروم هو الذى لا يكون له مال إلا ذهب . قضى الله تعالى له ذلك » . وقال أبو قلابة فى تفسير معنى المحروم : « جاء سيل بالجمامة فذهب بمال رجل فقال رجل من الصحابة : هذا هو المحروم » ؛ وهذا التفسير الذى ذهب إليه الصحابى رضى الله عنه تفسير جيد له فقه من القرآن الكريم ؛ ففى سورة « القلم » ذهب أصحاب الحديقة لجنى ثمارها ليلا فإذا هم يرون الآفة السماوية قد أتت عليها حتى ظنوا أول الأمر أنهم ضلوا الطريق إليها ، فلما تحقق لديهم أن الآفة ذهبت بثمارهم قالوا : « بل نحن محرومون » . . وفى سورة « الواقعة » يذكر الله تعالى فضله على عباده فيما تخرج لهم الأرض من زرع : « لو نشاء جعلناه حطاما فظلمتم تفكهمون : إنا نغرمون بل نحن محرومون » : فالمحروم على ذلك هو الذى ذهبت الآفات أو الحادثات وتصرفات الدهر بماله . ومن هذه الأقوال يتبين أن المحروم :

١ — هو الذى لا يستطيع الكسب لاستغلاق أبواب العمل فى وجهه ، أو لأى سبب

آخر من مرض أو ضعف أو نحوه ، ولا مال له .

٢ — هو الذى لا يكاد يستقر على حال من اليسر حتى تفاجئه الأيام بما يغير الحال غير الحال . قضى الله تعالى له ذلك ، كما ذكر الضحاك .

٣ — هو الذى ذهبت الآفات أو نحوها بماله من نمر أو تجارة أو ماشية أو نحوها .

هذان الصنفان « السائل والمحروم » هما أصحاب « الحق المعلوم » الذى تشير إليه الآية الكريمة .

ونحب أن نذكر فى ختام هذه الكلمة ما سبق أن أشرنا إليه من أن هذه الآية الكريمة مكية نزلت لتقرير « مبدأ الزكاة » على النحو الذى شرحناه ، وتركت تفاصيل هذه الفريضة إلى أن يحين حينها : فلما أذن الله سبحانه استقرار المجتمع الإسلامى بالمدينة بدأ الرسول عليه السلام فى السنة الثانية من الهجرة يفصل بأمر الوحي وإلهام الله كل ما يتعلق بها ، . . . فذكر أنواع المال التى تجب فيها هذه الفريضة . . . وبين الحد الأدنى الذى لا زكاة فيه . . . وبين مقدار ما يؤخذ . . . وفصّل طريقة الجباية . . . وحدد صلة ولى الأمر بما يجمع من أموال هذه الفريضة . . . وأوضح المصارف التى ترصد لها هذه الأموال . . . وعرض لغير ذلك مما يتصل بهذا الحق الاجتماعى ؛ فأمن به المجتمع من القلاقل والهزات ، وسلم الأفراد من حكم الهوان والمذلة والضياع ، ونمت مشاعر الناس فى ظلال هذا التكافل الذى طبق فى هذه الأرض لأول مرة فى تاريخ البشر على أساس من المودة والإخاء ، والمساواة والتعاون على البر والتقوى والخير العام . ،

توجيه المعارف في البلاد الإسلامية

لسماحة السيد أبي الحسن الندوي

وكيل ندوة العلماء بالهند

(٢)

إن التربية لا تقل أهمية عن التعليم ، وإذا خلا التعليم من التربية أصبح بلا نتيجة في أكثر الأحيان ، ونقصنا في ناحية التربية ليس بأقل من نقصنا في التعليم ومنهاجه . وموضوع التربية موضوع واسع طويل الذيل وكثير الشعب والنواحي ، وأنا أشير هنا إلى نقط مهمة .

يجب أن يفهم طلبتنا غايتهم ورسالتهم ، وليعرفوا أنهم يتعلمون ليستحقوا معادة الدنيا والآخرة ، وينقذوا أنفسهم وأهلهم من النار وسخط الخالق والحياة الجاهلية ، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وأنهم ورثة الأرض إذا صلحوا ، والناس لهم تبع . وأن الأصل فيهم أنهم مسلمون عاملون ، دعاة إلى الله وإلى دار السلام ، وكل شيء في حياتهم فرع ووسيلة دالة ، وليست غايتهم الوظائف — وإن كانوا يشغلونها بأهلية ويقومون بها بأمانة ونشاط — ولا الهن والحرف وإن كانوا يباشرونها بيقظة وكفاءة ، ولا الراحة والدعة والمجد وإن كانوا يتمتعون به في حل وفي اعتدال ، وإنما غايتهم حسن العمل ، وتقوى الله ، واتباع رسوله ، والاستعداد للآخرة ، والدعوة إلى الله . يستعملون لذلك جميع مواهبهم ، ويركزون فيه وقواهم وجهودهم ، ويعملون لذلك على اختلاف أذواقهم وفنونهم ومنهمهم وفرصهم .

ثم ليعرفوا كرامتهم وقيمة علمهم ، ولا يهينوا أنفسهم ، ولا يبيعوها ببيع السلع وبيع المناداة والمزاد العاني ، فيبيعوا أنفسهم لكل من يقومها ولكل من يزيد في الثمن كائناً من كان ، ويحاربوا مركب النقص في نفوسهم ، وليذكروا قول الشاعر العربي حاتم الطائي :

ونفسك أكرمها فإنك إن تهين عليك فلن تلقى من الناس يكرما

وقول الطغرائي :

غالى بنفسى عرفانى بقيمتها فصنتها عن رخيص القدر مبتذل

فلا يضيعوا أنفسهم إلا أشرف موضع يقدرون عليه من غير تكبر وأنانية ، ولا يستعملوا

مواهبهم إلا في الوجه الذي يليق بها ؛ وليعتزوا بدينهم ولا ينجسوا من الظهور به والانتساب إليه والقيام بواجباته ، وليعتبروا بالزعيم غاندى الذى — على كونه دينه خرافياً — لم ينجس من عبادته في البرلمان الإنجليزى ولا القصر الملكى ، ولم يخل بها في وقت من الأوقات المقررة ، ولهم عبرة في كثير من رجال كبار القصر الذين فاقوا الأوربيين في ثقافتهم وأدبهم ودراساتهم ، وجاهروا بالدين ، وانتقدوا الحضارة الغربية في شجاعة وصراحة ، وظهروا في مظاهر الدين كالزعيم محمد على الهندي ، والدكتور محمد إقبال وكثير في الهند ومصر .

النقطة المهمة الثانية هي التشبع بروح الدعوة والاختلاط بالشعب . وقد ظهر أن أمة أو جماعة ليس فيها روح الدعوة والتقدم والهجوم لا تحافظ على وجودها وعلى مبادئها وعلى عقيدتها . وأن موقف المدافع موقف الضعف المعرض للخطر وكل من لا يكون واعياً يكون هدفاً لدعوة أخرى . وقد ثبت بالتجربة أن خير وسيلة للإيمان بالمبادئ والثبات عليه ومثانة العقيدة والاستماتة في سبيلها هي الدعوة إليها ؛ فالداعى دائماً قوى الإيمان بمبادئه متحمس في عقيدته نشيط في عمله مستهين بغيره . فإذا أردنا أن نخلق في طلبتنا هذه الصفات وأن نخرجوا من دور الخطر على دينهم ، ونؤمن عليهم الاندماج في غيرهم والوقوف في المعسكر المخالف فينبغى لنا أن نجعلهم دعاة فإذا أردنا أن نجعلهم متدينين لزمنا أن نجعلهم دعاة إلى الدين . وقد جربنا ذلك في الهند فنجحنا نجاحاً باهراً ، فطلبة كليات الحكومة والكليات المختلفة لما خرجوا إلى القرى والضواحي يدعون إلى الله ، ويلقنون المسلمين مبادئ الإسلام ، ويوقظون فيهم روح الدين رأينا الحماسة الدينية فيهم تزداد اشتعالاً كل يوم ، وروحهم تقوى وهم في تقدم مطرد في الديانة والصالح حتى فاقوا في الحماسة الدينية ونشاطهم وإيمانهم بالدين والجرأة الدينية أبناء المدارس الدينية العربية التي لا يختلط طلبتها بغير المسلمين ولا يقرأون العلوم العصرية . والسر في ذلك هو الدعوة التي تجعل من الرجل غير الرجل ومن القلب غير القلب .

وقد جربت جماعات الإخوان المسلمين في مصر وأقطار الشرق الأوسط هذا الأسلوب حتى أصبح شبابها يتمتعون بروحه الدينية المشتعلة وأخلاقه الكريمة العالية وبروعة أثره في الناس .

وبهذه الدعوة والرحلات في سبيلها والاختلاط بالشعب على اختلاف طبقاته تتمكن من محاربة داء شديد حل جديداً بدور التعليم ورجالها ، وهو العزلة عن العالم الذي يعيشون فيه والانقطاع عن الأمة التي هم من أفرادها فقد أصبحت المدارس في حياتنا جزراً صغيرة منفصلة عن الخارج . والناس الذين يتخرجون منها يكونون جزراً

صغيرة أخرى ، فكل فرد منهم جزيرة مستقلة يعيش في عالم الخيال يسبح في فلكه الخاص وله دائرة من الأصدقاء والإخوان لا يتجاوزها ، ولا يعرف من آلام الأمة وآمالها شيئاً . فهو في واد والناس في واد ، وظلت الفجوة والجفوة تتسعان بينهما على مر الأيام حتى أصبح المتعلمون أمة مستقلة لها لغتها وثقافتها ونفسياتها لا يفهمها الشعب ولا يعرفها . وأخاف أن يحتاجوا بعد أيام إلى ترجمان على وحدة اللغة والجنسية والوطنية والمدنية ، وأصبح الناس ينظرون إليهم كأجانب — وحق لهم — وأصبحوا هم ينظرون إلى الناس كأبيين ومنحطين في العقل والثقافة والحضارة . وهكذا تتسع الهوة بين الطبقة المثقفة ودهماء الناس ، وليس ذلك في مصلحة أحد منهم ، ولا تنهض أمة ولا تعيش على مثل هذه الحال من الفرقة والانفصال . وبكثرة اختلاط الطلبة بالشعب في طريق الدعوة الدينية والتعليمية والإصلاحية ، وبكثرة ترددهم إلى القرى والضواحي والمدن عصابات وجماعات بشكل منظم وتحت إشراف الأساتذة ، تنشأ في الطلبة روح الدين والجهاد والكفاح في سبيل الحياة ، ويتعودون على الغلظة والشدة في الحياة ، وتنشأ فيهم كذلك روح الأخوة الصادقة والمحبة الخالصة وروح الخدمة والإيثار ، ويعرف بعضهم بعضاً ويخدم بعضهم بعضاً ، ويعرفون الحياة العامة وحياة القرى والبادية ، ويعرف الطلبة الحقل الذي سيعملون فيه ، ويجب أهل البلاد دعائهم ومرشديهم ومعلميهم الذين سيساعدونهم ويأخذون بأيديهم إلى غير ذلك من الفوائد التي لا تعرف إلا بالاختبار والتجربة .

وكلمة وجيزة عن التربية العسكرية والرياضة التي أهملها التعليم والتربية في بلادنا حتى نشأ شباب متخث رقيق مائع لا صبر عندهم ولا جلد ولا تماسك ولا ثبات ولا غلظة ولا قوة ، وقد انحطت الشعوب الإسلامية في العهد الأخير في فروسياتها وأجسامها انحطاطاً مفرعاً يهدد بخطر عظيم ، وقد قلدنا الغربيين — أو حاولنا أن نقلدهم — في كل شيء إلا في الاهتمام بالجسم والرياضة البدنية وتربية الفروسية والبطولة . فعلى رجال المعارف في البلاد الإسلامية أن يعيروا التدريب العسكري والرياضة البدنية قسطاً لا يقل عن عنايتهم واهتمامهم ، وتوجيه المدارس والكليات إلى الاعتناء بهذا الشأن حتى ينشأ جيل متوفر العلم سليم العقل قوى الجسم قوى الإيمان ، وهو الذي يستطيع وحده أن يؤدي رسالة الإسلام والعلم والفضيلة ، ويشق طريقه في الأشواك والأخطار ، فالحياة ليست روضة من الرياض ولا نوعاً من العبث ؛ إنما هي جد وكفاح لا يثبت فيه إلا الشديد القوى .

ولكن كل ما قلنا في التعليم والتربية يتوقف نجاحه على وجود معلمين يؤمنون بهذه المبادئ والعقائد والغايات ويخلصون لها كل الإخلاص ، ويدعون إليها بإيمان وحكمة وتكون حياتهم خير مثال لما يدعون إليه ، ووجود معلم يعارض هذا النظام بفكره وعمله أو هو غير مؤمن به غير مخلص له كوجود لوحة نخرة في سفينة في عرض البحر ، ومعمل هدام في بناء شامخ ، ولا ينجح نظام تعليمي ولا يؤتى أكله مهما كان كاملاً ومحكماً إذا كان المعلمون مذبذبين متناقضين الفكر لا تتفق حياتهم مع رسالة الدين والعلم . إن مسألة اختيار المعلمين ليست بسيطة سهلة كما يظن كثير من رجال المعارف إذ ليس أساسها العلم والمقدرة التعليمية والمؤهلات العلمية فحسب ؛ بل يجب أن تكون للسيرة والخلق والمبدأ والعقيدة المكانة الأولى والأهمية الكبرى في اختيار المعلم ، ويجب أن تكون هذه العقيدة المتغلغلة في الأحشاء قد ملكت عليه فكره ومشاعره ، وجعلت منه داعية لا يعمل ولا يكمل ومؤمناً لا يرتاب ولا يتشكك ؛ وذلك مثل المعلم الكامل الذي يسعد به نظام التعليم ويؤدي مهمته بنجاح وسهولة .

أما بعد فإني لا أعرف أمانة أكبر مسئولية وأشد خطراً وأعمق أثراً في مستقبل الأمة وحياتها من المعارف ؛ فزلة من زلاتها قد تردى أمة بأسرها في الهاوية ، وقد تؤدي بها إلى الانحلال والتفسيخ والفوضى في الأخلاق والاجتماع والسياسة والتعليم ، وإلى اللادينية والتمرد على الله في النهاية . ولكنها المعارف إذا استقامت أمكنها وحدها أن توجه العقول والنفوس توجيهاً صالحاً ، وتنشئ الأمة نشأة جديدة وتبني لها مستقبلاً زاهراً . وليس من الشرف والرجولة الفرار من هذه المسئولية ؛ بل الشرف والرجولة وعلو المهمة الاضطلاع بهذا العبء الذي ألقته الأمة على كاهلها والمساهمة في نهضة الأمة بالقسط الأكبر ، بل وضع أساسها الذي سيقوم عليه بناؤها الجديد .

الرحلات إلى المسلمين

للأستاذ أحمد مظهر العظمة

مفتش الدولة ورئيس تحرير مجلة التمدن الإسلامى بدمشق

نما يفخر به المعجبون بالغرب الرحلات التاريخية والعلمية ، وإنها لفخر حقاً ،
ولكن المسلمين كانوا أسبق إليها أيام أن كانوا بأحكام دينهم عاملين .

وقد ساعد الإسلام على ذلك أن العرب بحكم بيئتهم ميالون إلى التنقل ، وقد كانت
لقريش رحلة الشتاء والصيف طلباً للتجارة . وقد حث الإسلام المسلمين على الضرب في
الأرض فاتحين ومعلمين هادين ؛ فكثر الرحلات العلمية وأثمرت الثمرات الطيبة البانعة .

١ — فكان أهل (الحديث) يرحلون في طلب الأثر ويقطعون ظهور الإبل
إلى المرامي البعيدة ، وإلى كل شرق وصقع يعلمون أن فيه عن مصادر الحديث أحداً (١) .
روى أحمد أن جابر بن عبد الله الأنصاري بلغه عن عبد الله بن أنيس الجهني
حديث سمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشترى بعيراً ، ثم شدد رحله وسار إليه شهراً
حتى قدم عليه الشام وسمعه منه .

وكان مسروق يرحل في حرف ، وأبو سعيد كذلك (٢) .

و (قام البخاري برحلة طويلة (سنة ٢١٠) في طلب الحديث ، فزار خراسان
والعراق ومصر والشام ، وسمع من نحو ألف شيخ) (٣) .

٢ — ثم تبعهم أهل اللغة (يطلبون جفاة الأعراب . . . ويأخذون عن القبائل
التي بعدت عن أطراف الجزيرة وبقيت في سرة البادية أو فاضت حولها) واستمروا
يرحلون إلى أواخر القرن الرابع (٤) .

٣ — وكانت الرحلات العلمية وغيرها من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى
المشرق كرحلة ابن جبير الأندلسي (المتوفى ٦١٤) .

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ص ٣٤٢

(٢) جامع بيان العلم للقرطبي ص ٩٤

(٣) الأعلام للزركلي ص ٣ ٨٦٤ عن تذكرة الحفاظ ٢ - ٣

(٤) تاريخ آداب العرب للرافعي ٣٤٣ و ٣٤٥

وقد دفع الاستطلاع كثيراً من الباحثين ، فطافوا في أرجاء العالم لمجرد الوقوف على شئون شعوبه وأحوالهم ودراستها : منهم العلامة المسعودي (المتوفى ٣٤٦) صاحب كتاب مروج الذهب ، الذي ساه في بلاد فارس والهند والصين ، وكان عمره إذ ذاك لم يتجاوز العشرين .

ومنهم الفيلسوف الفلكي البيروني (ت ٤٤٠) الذي توغل في الهند وترك لنا كتابه القيم تاريخ الهند .

ومنهم أبناء العلم الثمانية (في القرن الرابع على الأغلب) الذين خرجوا من لشبونه (فأنشأوا مراكباً وتزودوا فيه ثم ركبوا بحر الظلمات واقتحموه ليعرفوا ما فيه من الأخبار والعجائب ، وليعرفوا إلى أين انتهأؤه ، وهم يسمون المغربين — أو المغربيين —)^(١) .

٤ — وكانت البعثات الرسمية لأسباب علمية ودينية وسياسية ، كالبعثة التي أوفدها المأمون إلى ملك الروم لطلب الكتب^(٢) .

وكإرسال الخليفة العباسي المنتصر عام ٣٠٩ ابن فضلان إلى البلغار الذين يسكنون حول نهر الفولغا للدعوة إلى الإسلام ، وكالبعثة التي أرسلها الخليفة الواثق إلى سدّ ياجوج ومأجوج ، وإرسال سلطان مراکش ابن بطوطة (ت ٨٨٩) إلى السودان . ولا يفوتنا التذكير بأن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله سبق إلى مثل هذه البعثات . وفي سيرة ابن إسحاق أنه عليه الصلاة والسلام أرسل مصعباً إلى المدينة وأمره أن يقرئ القرآن القوم الذين يبيعوه ، ويفقههم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، وكان يسمى المقرئ بالمدينة^(٣) .

وفي صحيح البخاري أن يزيد بن أبي سفيان كتب إلى عمر : قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فأرسل معاذاً ، وعبادة ، وأبا الدرداء . ولعلّ لنا عودة إلى هذا البحث نذكر بها من أنباء بعض الرحالين .

(١) الحضارة الإسلامية مترج ٢ ص ٨ وتفصيل أبناء العلم ص ٣٦٧ نقلا عن الإدريسي طبعة درمرزي ص ١٨٤

(٢) الفهرست لابن النديم ٢٣٤

(٣) التراتيب الإدارية لسيدى عبد الحى الكتباني ص ٤٢

مع العارفين

عتبة الغلام

لم يكن غلاما حين مات ، ولا حين أطلق عليه هذا اللقب ، ولعله كان قد جاوز الثلاثين حين لقي ربه ، ولكنهم أعظموا قدمه في جهاد نفسه وعبادة ربه إذ كانت له همة لا تنفك عن طلب المثل العليا فلا يراه الرائي إلا مشحراً لغايته ، أو سابقاً في مضماره شأن غلمان السباق والرهان في تلك الأيام الحالية ، فسموه الغلام ؛ سئل رباح القيسي : يا أبا المهاجر : لأي شيء سميت عتبة « الغلام » ؟ فقال : كان نصفاً في الرجال ، ولكننا كننا نسميه « الغلام » لأنه كان في العبادة غلام رهان . .

استشهد عتبة وهو يغزو في سبيل الله بالمصيصة من شمال الشام ، فاجتمع نفر من أصحابه بالبصرة موطنه الأصلي وقالوا : لقد لج بنا الشوق إلى عتبة ، فتعالوا نجلس إلى أم عطاء جارتها الصالحة فهي أعرف بحاله ، لعلها تحدثنا عنه حديثاً ينهض عز منا ويستحث خطونا إلى الله ، ويحيينا معه ساعة في ملكوت السموات . . !

قالت أم عطاء : رحم الله عتبة ، والله ما كنت آبه لشأنه أول الأمر لشدة ما كان يخفى من حاله ، ولقد كان جاراً لنا فاعل نعمة من خلق الله لم تكن أهون على منه

قال أحمد بن زهير المروزي من طرف المجلس : يرحمه الله يأم عطاء !! والله ما كان أحد منا إلا ويتمنى أن يكون له في نفوس الناس قدر ومنزلة إلا عتبة فإنه كان يرى ابتغاء المنازل عند الناس هو السقوط من عين الله . . . ولقد كان يفرح لما يرى من هوانه على الذين لا يعرفونه ، كما يفرح أحدنا بإقبال الناس عليه بالكرامة . . . ولقد ركبنا مرة في سفينة فاضطربت بنا بعض الشيء وجعلت تميل وتستوى ، فأراد الملاح أن يعدل جلوسنا فلم يجد أهون في عينه من عتبة ، فدفع في جنبه وقال : استويا هذا بإزاء من يجوارك !! قال ابن زهير : فوالله لقد رأيت السرور يشرق في وجه عتبة ، وسمعت غمغمة يسيرة تتحرك بها شفتاه ، فأدנית أذني منه فإذا به يقول : الحمد لله على أن لم يرفيهم أحقر في عينيه مني . .

قالت أم عطاء : وهذا شأن الأتقياء الأخفياء : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . . ولم أكن أقل جهلا بهذا التقى الحنفى من الملاح الذى ضربته فى جنبه ، ولقد كنت إذا أفطرت من صياحى قلت : اللهم استغنى من حوض النبی صلى الله عليه وسلم ؛ فرأيت فيما يرى النائم ذات ليلة قائلا يقول لى : يا أم عطاء ، إذا سألت الله أن يسقيك من حوض النبی صلى الله عليه وسلم فسليه أن يسقيك من حوض التقى الحنفى فإن له عند الله لزلفى . . قلت : ويحك ومن يكون ذلك ؟ قال : جارك الأذى ! قلت : ويحك لا أفهم ما تقول ! قال : عتبة بن أبان ابن ثعلب ! فانتبهت من نومي ، وإني لدهشة لما قال .

واسترسلت أم عطاء تقول : فعدوت إلى بيته ، وانتحلت علة أدخل بها على مولاته فلما رآنى قال : يا أم عطاء . . لا تصدق ما يقال لك فى أضغاث الأحلام فإنه قد يكون من الفتن ! !

فأخذت القوم هزة مالوا بها فى المجلس كما تميل أطراف الأشجار فى اليوم العاصف . واستمرت أم عطاء تقول : وتوثقت صلوات الود بينى وبينه . وكان يأخذ دقيقه فيبله فى الماء فيعجنه ويضعه فى الشمس حتى يجف ، فإذا كان الليل جاء فأخذه وأكل منه لهما ، ثم يأخذ الكوز ، فيغرف من حُب^(١) كان فى الشمس نهاره ، فقلت يا عتبة : لو أعطيتنى دقيقك فخبزته لك وبردت لك الماء أو أمرت مولاتك فصنعت لك ؟ فقال : يا أم عطاء ، الأمر أعجل من ذلك . . كسرة وملح تسد عنى كلب الجوع ، حتى يهيباً فى الدار الآخرة الشواء والطعام الطيب . . وكان يصوم الدهر ، و . .

قال سلم العبادانى : يرحم الله أيها الرقيقة ! لقد كان شوقه إلى دار الخلود يكاد يذويه ولها بها . ولقد قدم علينا مرة ومعه عبد الواحد بن زيد وصاحبان آخران ، فزّلوا على الساحل ، فهيات لهم طعاما ذات ليلة ودعوتهم إليه فجاءوا ، فلما وضع بين أيديهم ، إذا غلام على ساحل البحر يرفع صوته بقول القائل :

ويلهيك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس غبّتها غير نافع

فانتفض عتبة انتفاضة سقط على أثرها مغشياً عليه . . وبكى القوم لغشيته ، واشتغلنا به ، ورفعنا الطعام ، وماذاقوا والله منه لقمة ! !

قال عبد الواحد بن زيد : إني لأذكر تلك التى تذكر يا سلم ، وأذكر أنى صنعت

(١) الحب : حب الماء هو ما يسمى عندنا (الزير) .

طعاماً لنفر من إخواني وكان فيهم عتبة ، فأكل القوم إلا عتبة فإنه قام بخدمهم ، فلما فرغ القوم سأله أحدهم في ذلك ، فأجاب : احتفائي بخدمتكم أهنأ إلي من الطعام ، وإني ذكرت موائد أهل الجنة والخدم قيام على رؤوسهم ، فأحببت أن تكون مائدتنا على مثالها .

قال عبد الواحد : فوالله لقد وقع في نفسى كلامه موقعاً لم أجد معه إلا أن أنذِرَ على نفسى ألا آكل إلا دون الشبع ، ولا أشرب إلا أقل من الرى . .

قالت أم عطاء : لله ما ترك عتبة من شهوات نفسه !! لقد نازعته نفسه مرة إلى اللحم فقال لها : اندفعى عني إلى قابل ، فما زال يدافعها سنة بعد سنة حتى أخذ دائقاً ونصفاً وأتى صديقاً له خبازاً ، فقال : يا أخى إن نفسى تنازعنى لحماً منذ كذا ، وقد استجيت منها كم أعدها وأخلفها ! فخذ لي رغيفين وقطعة من اللحم بهذا الدائق والنصف ، فلما أتاه به إذا هو بعصى يمشى في الطريق ، فأسرع إليه وقال له : ألسنت يا غلام فلان ابن فلان ؟ وقد مات أبوك ؟ قال : بلى . .

قالت أم عطاء : لجعل عتبة يبكى ويمسح رأس الصبي ، وقال : قرة عيني من الدنيا أن تصير شهوة نفسى في بطن هذا اليتيم ، فناولته ما كان معه ثم قرأ « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » .

قال محمد بن مستور : رحم الله عتبة ، والله لقد كانت آيات الزهد تنير في قلبه مثل المصابيح وما أحسب إلا أنها بهذا النور أعانته على جهاد نفسه ، وإني لأذكر أنه وفد علينا يوماً ، فقلت لأصحابي : اشتروا لحماً بدرهم واطبخوه سكباجاً حتى يتعشى به عتبة ، فلما صلى العشاء فقدناه ، فطلبناه فوجدناه قد أوى إلى جنب خال وأمامه سويقٌ دقيق قد جعله في وعاء له وقد صب عليه ماء ، وهو يأكل وعينه تذرفان ، فقلت له : سبحان الله ، إخوانك قد صنعوا لك سكباجاً ! فقال : هذا يكفينى . إني أخاف أن يقال لي يوم القيامة « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم يحزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » .

قالت أم عطاء : هو ما تقول يا ابن مستور ، لقد كانت آيات الزهد تزهر في قلبه مثل المصابيح حتى أنارت له كل شيء . . أنارت له الدنيا فلم يكن قدرها لديه إلا أن دعا ربه : اللهم من على بصوت حزين ودمع غزير وغذاء من غير تسكف . . وأنارت له الآخرة فكان قدرها لديه أن دعا ربه : « اللهم احشر عتبة بين حواصل الطير وبطون السباع » . . فباليك من يملأون حواصلهم بأموال الضعفاء ولحوم اليتامى يعتبرون بسيرة

ذلك الصديق الشهيد ، الذي وهب من نفسه كل شيء ، ووهب لجه أخيراً لحواصل الطير وبطون السباع مهراً للشهادة في سبيل الله !!

وصمتت أم عطاء لحظة ومضت تقول : لقد جاء في غداة باردة وما في البصرة كلها إلا من أوى إلى فراش يدفئه أو موقد يصطلي بجذوته ، فقال : الوداع يا أم عطاء ! لقد أزمعت الرحيل إلى الشام غازياً في سبيل الله !! قلت : يعز علي فراقك يا عتبة ، فلا أوحش الله منك ،

فقال : بل قد يطول الفراق ، وما أحسبنا نلتقي .

وهنا اختنقت أم عطاء بالبكاء ، فسكتت لحظة كفكفت فيها من الدمع ، ثم عادت تقول : لله تلك الأرواح الطاهرة والنفوس المشرقة ، لقد صفا طبع عتبة حتى كان أضوأ من وجه المرأة ، فكان لا يخطر بنفسه الحاطر من أمر الله في لحظة من نهار ، إلا تراءى سره فيه ، وما كانت البشرية تنزل إليه في رؤية من الرؤى إلا جاءت كفلق الصبح . لقد قال لي : سيطول الفراق يا أم عطاء ، وما أحسبنا نلتقي في هذه الدار !! هكذا أوريث تلك الليلة ، وما أحسب إلا أن الله قد أجاب ما كنت أدعوه به : اللهم احشر عتبة في حواصل الطير وبطون السباع ! ومضى يقول : أرايت ذلك المكان في داري ، الذي أتعبد فيه ؟ ! هذا مفتاحه فأجعله معك لا يفتحه أحد ، فإذا بلغكم منعاه فافتحوه ، ففيه وصيتي .

ولما بلغت أم عطاء هذا الحد من الكلام أخذها ما يشبه الرعدة ، وبكت وهي تواصل حديثها قائلة : لله تلك الذسمة الزكية ، ما أشد ما كانت تذكرنا الدار الآخرة حتى لـكنت أـكاد أسمع صيحات الفرع تطلقها نفسى بين جنبي من هول ما كانت ترى في كلامه من صور القيامة . . قال لي مرة : لولا ما نهينا عنه من تمنى الموت لتمنيته ، لي فيه خلتان حسنتان : الراحة من عشرة الفجار ، ورجاء مجاورة الأبرار . . ثم بكى وقال : أسـتغفر الله ، وما يؤمننى أن يقرن بينى وبين الشيطان في سلسلة واحدة من حديد ، ثم يقذف بي في النار ؟ فما كدت أسمع كلمته حتى خلع الهول قلبي . . وكنت أحسب ذلك هو كل جهد عتية معنا ومع نفسه ، ولكن هيهات لسابق المضمار أن يقف بحاله مع نفسه عند ما يقف مع الناس .

لقد جاء الناعى نبأ استشهاد واسترجعنا ما شاء الله أن نسترجع ، ثم قمنا إلى مكان عبادته لنرى وصيته التي وصى بها ، فإذا المكان ليس فيه إلا قبر محفور . . . وسلسلة ذرعها

سبعون ذراعا .. وشهقت أم عطاء وأجهشت بالبكاء وأجهش القوم معها فلم يُرَ أكثر
بكاء لموعظة من ذلك اليوم ...

وكانت الشمس قد انحدرت للمغرب فلم يعد منها إلا بقية صفراء على رؤوس الأشجار ،
فجاءت جارية تؤذنها أن الحل الذي اعتادت أن تفطر به من صيامها مع كسر الحبز قد نفذ ،
فإن لم يكن لك حاجة إلى وضوء المغرب مضيت فاشتريت خلا ، فقالت وهي شارقة بالدمع :
بل فربي لي الوضوء فإنه لا أرب لي فيما تشغلين به نفسك ، وفي الماء القراح غنية
للصائم إذا أراد أن يغذ المسير إلى أحبابه ١١

وتفرق الجمع ليستعدوا لصلاة المغرب وهم يشفقون أن يتصدع فؤادها لما هاج
به من الوجد .



أخلاقهم نورهم ..

من الرجال المصابيح الذين همو كأنهم من نجوم حية صنعوا
أخلاقهم نورهم من أى ناحية أقباب تنظر فى أخلاقهم سطعوا

السلامة

« بين غضب الطبيعة وغدر الإنسان ... »

الأستاذ محمود حسن اسماعيل

بكى على الصدى ، واللحن ، والوتر
أومت إلى سواقيه . . فقلت لها :
دورى على نوحك المهجور فى أفق
لا ترقبى عائداً بالنأى . . أودنفاً
ولا تظنى صلاة الوحي آتية
إننا غريبان . . ساق الظلم أذمنا
فى رخلة لا تعى الأيام وجهتها
ولا ديار ، ولا أهل ، ولا سكن
كأننا فى خضم الرياح عاصية
تلفى . . هاهم فى الأرض إخوتنا
كانوا بأوطانهم كالنأس . . وانذبوا
مشردون . . بلا تيه ! فلو طلبوا
يلقى الشريد فجاء الأرض واسعة
فى خيمة من نسيج الوهم ، لققها
أوهى ، وأوهن خيطاً من سياسته

ولم أزل لِعذاب الشعر أنتظر !
مات الربيع ، ومات العطر والزهر
ناح التراب عليه ، واشتكى الحجر
تعطيك بعض الهوى من شجوه الذكور
إن المصلين للإلهام قد عبروا . .
إلى فجاء بها يستصرخ القدر
ولا يتاح لها حل ، ولا سفر
ولا حياة ، ولا عيش ، ولا عمر
من الغصون رمى آجالها الشجر . .
شعب برمته فى العزى يحتضر !
فما هم من وجود الناس إن ذكروا
تجدد التيه فى الآفاق ما قدروا . .
اكنهم بمدى أنفاسهم حشروا !
ضمير باع على الإسلام ياتمر
لَوْ مَسَّها الضوء لَانْقَدَّتْ بها الشتر

تَعْدُو الرِّيحُ بِهَا نَشْوَى مُتَهَمَةً كَأَنَّهَا بِشُقُوقِ الرَّمْلِ تَنْحَدِرُ
أَوْ أَنَّهَا حِينَ تَذَرُوهَا سَنَابِكُهَا أَضْعَافُ شَيْءٍ تَلَاثَى ، مَا لَهُ أَثَرُ
تَهْتَزُّ إِنْ ذَاكَتِ الْأَحْلَامُ صَفْحَتَهَا بِنَسْمَةٍ بِظِلَالِ الْخُلْدِ تَأْتِزُرُ
وَتُنْشِبُ الذَّعَرَ وَالْأَوْتَادَ هَارِبَةً فِي صَدْرِ سَاكِنِهَا ، إِنْ زَارَهَا الْمَطَرُ . . .
فَكَيْفَ لَاقَتْ زَيْبَ السَّيْلِ ! كَيْفَ غَدَتْ وَوَبِلُهُ كِنَبَالِ الْمَوْتِ يَنْهَمِرُ !
وَعَيْمُهُ لَمْ يَدْعُ فِي الدَّهْرِ ثَاكِلَةً أَبْقَى لَهَا دَمْعَةً لِلشَّكْلِ تُدْخِرُ
غَاضَتْ دُمُوعُهُمْ مِنْ طَوْلِ مَا ذَرَفُوا فَمَا يَذَرُفُ عَنْهُمْ كُلَّ مَا سَتَرُوا . . .
وَيَنْفُخُ الصُّورَ مِنْ بُوقٍ ، يَصُبُّ بِهِ هَوْلَ الْهَلَاكِ ، فَلَا يُبْقَى وَلَا يَذَرُ . . .
لَعَلَّهُ يُوقِظُ النَّوَامَ فِي أُمَمٍ لِلشَّرْقِ ، غَطَّ بِهَا الْإِغْيَاءُ وَالْخَدَرُ !
لَعَلَّهُ الصَّيْحَةُ الْكُبْرَى ، لِمَنْ نُهَكَتْ شَعَائِرُ اللَّهِ ، وَهُوَ الصَّامِتُ الْخَدِرُ !
لَعَلَّهُ السَّوْطُ ! وَالْأَقْدَارُ ضَارِبَةٌ هَذَا الرَّمِيمَ الَّذِي لَمْ تَحْوِهِ الْخُمْرُ !
لَعَلَّهُ غَضَبُ الْجَبَّارِ ، فَاضَ بِهِ مَقَتُ السَّمَاءِ عَلَى قَوْمٍ بَنَى فَجَرُوا !
لَعَلَّهُ أَدَبُ عَاتٍ ، لِمَنْ ذَهَبَتْ أَهْوَاؤُهُمْ بِسِيَّاحِ الدِّينِ تَسْتَبَرُّ !
لَعَلَّهُ عِزَّةٌ ، جَاءَتْ مُعَاتِبَةً ذَلًّا تَكَادُ لَهُ الْأَعْنَاقُ تَفْكَسِرُ !
لَعَلَّهُ غَضَبَةُ الرَّحْمَنِ . أَنْ لَنَا دَرْبًا تَعَالَتْ بِهِ الصَّيْحَاتُ وَالنُّذُرُ !
سِرْنَا بَعِيدًا .. وَحِدْنَاهُ . فَاحْتَلَطَتْ بِنَا الدُّرُوبُ ، وَصُبَّتْ فَوْقَنَا الْغَيْرُ . . .
يَا مَنْ لِقَوْمٍ عَلَى الْأَوْحَالِ يَنْهَشُهُمْ غُولُ الشِّتَاءِ يَرِيحُ فَجَرُهَا عِكِرُ
مَلْعُونَةُ اللَّامِسِ مَنْ مَسَّتْهُ رَاخَتُهَا عَضَّتْهُ أَفْعَى سَرَى مِنْ نَابِهَا الْخَطَرُ
إِنْ لَمْ تَذِقْهُ الرَّدَى سُمًّا . . . فَرَحَمَتِهَا أَنْ تَبْذُرَ السُّلَّ فِيهِ ثُمَّ تَنْحَسِرُ
كَانُوا عُرَاةً ! فَغَطَّى التَّلْجُ أَعْظَمَهُ . . . وَالْبَرْدُ خَفَّ لَهُمُ بِالْمَوْتِ يَعْتَدِرُ . . .

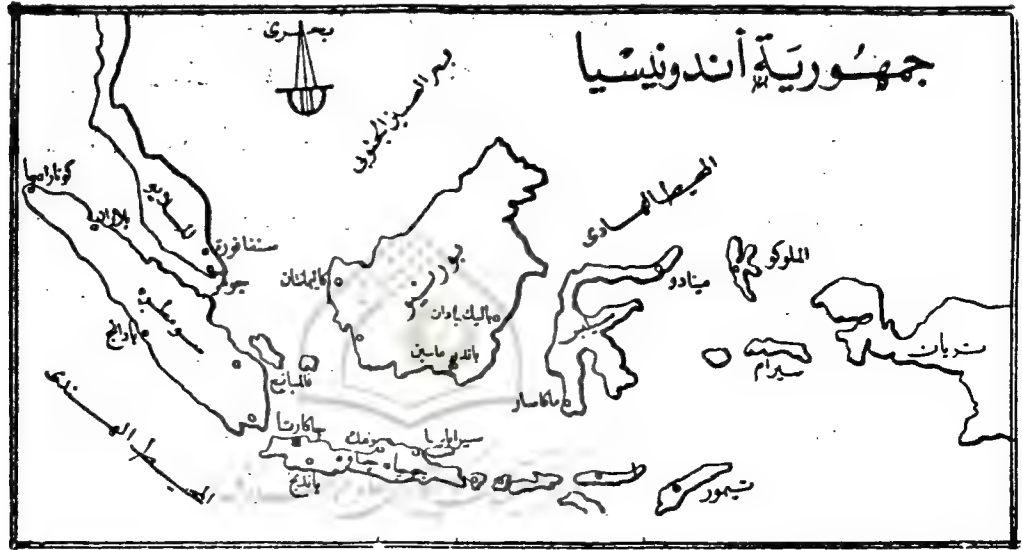
وَكُنْكِبُوا فِي مَحَاضِي ، يُشَلُّ بِهَا خَطُوهُ الرِّيَّاحِ ، وَتَنْمَى نَارَهَا سَقَرُ !
 مَا بَيْنَ طِفْلِ تَمُدُّ الرَّاحَ نَظَرُهُ وَأُمُّهُ فِي مَطَاوِي النَّزْعِ تَنْفَطِرُ
 وَغَادَةَ تَهْمِلُ الْأَقْدَارَ فِتْنَتُهَا .. فِي بَفْتَةِ السَّيْلِ لَمْ يُذْرِكْ لَهَا خَبَرُ
 طَارَتْ .. وَعَادَتْ .. وَصَارَتْ فِي مَفَازِهَا حَمَامَةً فِي مَدَارِ الصَّيْدِ تَنْسَحِرُ ..
 وَطَيْفِ عُرْجُونٍ شَيْخٍ فِي تَهَارُ بِهِ مَعَ الْعَصَا ، كَانَ طَيْفًا ثُمَّ يَنْدُرُ !
 أُسْطُورَةٌ تُخْجِلُ الدُّنْيَا حِكَايَتُهَا بَلْ أُمَّةٌ بِيَدِ الطَّاغِينَ تَنْتَحِرُ
 بَنَسَتْ حَضَارَتُكُمْ ، فِي كُلِّ مَا نَزَلَتْ فَكُلُّ مَا تَبْتَغِيهِ لِلْخَنَا صُورُ
 بَنَسَتْ سِيَاسَتُكُمْ ، فِي كُلِّ مَا نَهَجَتْ فَكُلُّ مَا تَدَّعِيهِ كَاذِبُ أَشِرُ
 هَذَا السَّلَامُ الَّذِي نَادَتْ مَعَابِدُكُمْ ؟ .. أَمْ تِلْكَ مَجْزَرَةٌ يَخْزِي لَهَا الْبَشَرُ !!



مَجْلَدُ الْبَحْثِ فِي سِيَرَةِ

اندونيسيا المسلمة

مساحتها : لعلك تعجب إذ تعلم أن أندونيسيا هذه التي كانت مستعمرة هولندية إلى سنة ١٩٤٥ تبلغ مساحتها قدر مساحة أوروبا بأكملها، ولكن هذه هي الحقيقة الواقعة .
ويبلغ عدد جزر الأرخبيل الأندونيسي أربعة آلاف جزيرة أهمها : سومطرا ، وجاوا
وكاليمتان « بورنيو » ، تيران « غينيا الجديدة »



عدد سكانها : أما عدد سكانها فيبلغ : (٧٢ مليوناً) منهم ٩٥ ٪ مسلمون ٥ ٪ مسيحيون وبوذيون .

لغتها : اللغة الرسمية بها هي اللغة الأندونيسية ، واللغة العربية منتشرة تؤدي بها الصلاة ويقرأ القرآن بها وتخطب الجمعة ثم تترجم إلى اللغة الأندونيسية .

مؤسساتها الدينية والسياسية :

١ - مجلس شوري مسلمي أندونيسيا : وقد تألف بقرار من المؤتمر الذي حضره مندوبو جميع الهيئات الإسلامية بعد استقلال أندونيسيا سنة ١٩٤٥ وأهم أهدافه :

(أ) تأييد سياسة الجمهورية الأندونيسية والعمل على إعزاز الدين الإسلامي

(ب) تحقيق مقاصد البلاد في حكمها وسياستها وتأليف جيش التطوعين الشعبي

« حزب الله » .

(ح) تنظيم حركة الشباب المسلم الأندونيسى وتكوين منظمة خاصة به ، ويعتبر هذا الحزب ويسمونه « ماشوى » الحزب السياسى الأول . ومنه نصف رجال الوزارة الحالية ورئيسها .

٢ - حزب دار الإسلام : وهو حزب إسلامى ثائر تكون سنة ١٩٢٨ إثر هزيمة رائفيل التى تم فيها الاتفاق بين الهولنديين والجمهوريين على سحب القوات الجمهورية من جاوا الغربية ، فقام رجال دار الإسلام بزعامه « كارتو صوريو » يدافعون عن هذه المنطقة ويعلنون قيام جماعتهم لتطهيرها من الكفار المعتدين وإقامة حكم الله فى أندونيسيا كلها . ولهم أنصار مؤمنون بدعوتهم فى جاوا الوسطى وطريقة قتل الاعتصام بالجبال والتنظيم السرى والجهاد المسلح فى سبيل الله ، وهم يتهمون الحكومة باتجاهها غير الإسلامى ، وتتهمهم الحكومة بالتهور والعنف .

٣ - شركة إسلام : وهى جمعية إسلامية كبرى أنشئت سنة ١٩١٢ وكان هدفها الأول تعاون المسلمين فيما بينهم اقتصاديا ، ثم تحولت إلى حزب سياسى يرمى إلى غايات دينية واجتماعية . وبدأ يضعف بعد سنة ١٩١٩ بسبب الانقسامات الداخلية .

٤ - الجمعية المحمدية : تأسست سنة ١٩١٢ أيضا ، وهى تدعو الناس لإقامة حياتهم على أساس من كتاب الله وسنة رسوله ، ولها فرع نسائى يسمى « الجمعية العائشية » ، وتتبعها فرقة للكشافة اسمها « حزب الوطن » وتهتم الجمعية المحمدية بالتعليم إذ لها أكثر من ١٢٥ مدرسة فى سوراكرتا وجاكرتا

٥ - جمعية نهضة العلماء : نشأت سنة ١٩٢٦ وكان عمادها نخبة من علماء الشافعية ، وقد صار لها بفضل جهودهم شأن عظيم .

٦ - الاتحاد الإسلامى : وهو منظمة عظيمة النفوذ

٧ - الحزب الوطنى الأندونيسى : ورئيسه « وريو » نائب رئيس الوزراء . وهذا الحزب يدعو إلى الوطنية الأندونيسية ، وكان ينتمى إليه الدكتور سوكارنو قبل رياسته للجمهورية والدكتور محمد حتا نائب رئيس الجمهورية .

٨ - الحزب الاشتراكى : ورئيسه الدكتور سوتان شاهرير ، ويدعوا إلى قيام دولة اشتراكية عالمية .

٩ - حزب العمال : ومهمته الدفاع عن حقوق العمال ويتنازع أعضائه الحزبان الاشتراكى والشيوعى .

١٠ — الحزب الشيوعي : وقد ظهر سنة ١٩٢٦ أثناء الثورة الشيوعية وقد

طغى عليه نظام الحزب الاشتراكي .

التعليم في أندونيسيا :

١ — المدارس الابتدائية منتشرة في طول البلاد وعرضها

٢ — وبها ١١٩٦ مدرسة ثانوية تتسع لربع مليون طالب .

٣ — وبها أيضاً ١٦ معهداً عالياً لتخريج المعلمين في مختلف العلوم والفنون ،

كالهندسة والصناعة والتجارة .

٤ — ويوجد بها جامعتان حكوميتان بكامل معدّاتهما وأساتذتهما ؛ إحداها

في العاصمة الجديدة « جاكرتا » والأخرى في العاصمة القديمة « جولجاكرتا » ،

وفي الجامعتين عشرون كلية يحضرها ستة آلاف طالب ، وبها جامعتان أخريان هما :

الجامعة الإسلامية بمدينة « صولو » بجاوا الوسطى ، والجامعة الوطنية بالعاصمة .

٥ — وبها مدارس خاصة للبنات يتعلمن فيها : الطهي والغسل والحياكة والترييض

وتربية الأطفال وغيرها مما يتصل بوظيفة المرأة .

أهم حاصلاتها :

الأرز والمطاط والتبغ وجوز الهند والتوابل والشاي والبن . ومن الثروات المعدنية :

القصدير والبتروول والفحم الحجري والحديد والذهب . وتمتد أندونيسيا أغنى جزر العالم

وهي في مجموعها أغنى من اليابان ؛ ولكن الاستعمار — قاتله الله — عمل على إفقار

الشعب الأندونيسي وتجهيله منذ ٣٠٠ سنة حتى تبقى هولندا منعمة بهذه الثروة الهائلة

من دون أهلها .

مواصلاتها :

في داخل الجزر تستخدم القطارات والترام والسيارات والعربات وتأخذ الرحلة من

من ميناء « سابانج » إلى ميناء « ماروكي » وهما طرفا أندونيسيا عشرين يوماً في البحر

وتستخدم البواخر والطائرات للاتصال الخارجي وتسيطر عليهما شركتان هولنديتان .

الناحية الصحية :

كانت مهمة بسبب الاستعمار الهولندي فلا يوجد إلا طبيب واحد لكل سبعين ألف ،

وسرير واحد في المستشفيات لكل ألف شخص في المدن ، أما القرى فلا يوجد بها شيء

من ذلك مطلقاً . وقد بدأت النهضة الصحية مع سائر المرافق الاجتماعية منذ الاستقلال .

في أفق العالم الإسلامي

وادي النيل :

... اتسعت دائرة نشاط (الجنود المجهولين) في منطقة القتال ، وأبدوا روائع من البطولة وإنكار الذات أزعجت الإنجليز الذين فهموا بوضوح أنها حوادث شعبية غير مفتعلة تهدد مصالحهم الحقيقية بالخطر ، وأنها بداية أسلوب جديد في الكفاح لاتتقى معه الأعياب السياسية . وامتدت هذه الروح الفدائية امتداداً طيباً في مصر والسودان ، وكان من أروع مظاهرها يقظة شباب الجامعات وإقبالهم على التدريب العسكري العملي في معسكرات أقاموها لأنفسهم . وقد أشاعت هذه المعسكرات جواً من معاني الرجولة والكفاح كنا أحوج ما نكون إليه في شبابنا المثقف ، وكان من آثار روح الجدة هذه أن أقبل الطلاب على التطوع والتبرع إقبالاً كريماً ؛ فمنهم من تبرع بساعته وخاتمه الجميل ، ومن تبرعت بسوارها . وذلك يبشر بنجح كثير ويثبت أن الشعب نجح إذا عرف طريقه الصحيح . أما الحكومة فلم تخط إلا خطوات وثيدة ؛ فقد سحبت سفيرها من لندن وأصدر مجلس وزرائها قراراً بتعديل قانون السلاح ينتظر الناس نصوصه بلهفة ، كما قررت وضع كتاب التحرير تحت إشرافها ، وهو تصرف يفقد الكتاب معناه الشعبي الحر الذي ولدت به ويجعلها فرقة من قوات الحكومة الرسمية .

وقررت كذلك نقل المكتب الهندسي بلندن إلى وسط أوروبا ، وكانت وظيفته التوسط في الاستيراد الحكومي للمصالح المختلفة في إنجلترا . واستولت الحكومة على نادي الجزيرة باسم المنفعة العامة . ثم جاءت مقابلة الدكتور صلاح الدين باشا لمستر إيدن ولا يزال أمرها سرّاً مكتوماً ، وكل ما يشاع عنها محض تكهنات صحفية ولم يصدر بشأنها أي بلاغ عن الطريق الرسمي الدبلوماسي . ولا نظن أن وزير خارجية مصر يمكنه أن يغفل الدم المصري المراق في القتال ، ولا مشاعر الأمة المشوبة وإجماعها على مواصلة الكفاح وتحمل تبعاته إلى النهاية ؛ والنهاية هي التحرر حتماً لأنه لامصلحة للإنجليز في بقائهم ببلادنا إذا كان ثمن إقامتهم فيها كل يوم قتلى وجرحى من البريطانيين ، ولا أن يفرض الطرف عن وحشية القوات الإنجليزية في القتال وانها كهم لكل حرمات مصر في حوادث مخزية متصلة لم يكن آخرها حادثة تدمير قرية كفر عبده .

وقد تساءل الناس عن موقف (الإخوان المسلمين) من هذه الحوادث وخطتهم لإزائها ، وصرح فضيلة مرشد العام الأستاذ (حسن الهضيبي) في مؤتمر كبير بالإسكندرية أن الإخوان أيدوا الحكومة في خطوتها بإلغاء المعاهدة وتركوا لها القيادة وانتظروا ما ينجم عن تصرفها حتى لا يكون في أي عمل من جانبهم ما لا يتفق مع خطة الحكومة التي قالت إنها أعدتها ولم تعلنها وحتى لا يكون في استقلال الإخوان بخطة من جانبهم مظنة تتأولها الحكومة على غير وجهها كما حدث معهم

في حرب فلسطين ، وذكر فضيلته أنه قال لمعالى وزير الداخلية في اجتماع الزعماء الخامس بالكتاب إنه ليس لدى الإخوان كتاب ، ولكن لديهم مؤمنون ، كل منهم كتيبة في ذاته ، وإذا أرادت الحكومة منهم عملاً : فلنسلمني السلاح ولا تسألني عن أسمائهم وأنا المسئول عنهم ، ولا يجوز أن ينتظر من الإخوان غير ذلك بعد الذي خبروه في محتهم ، وما دام في البلاد بوليس سياسي .

وقال فضيلته : إن الحكومة لم ترد على هذا حتى الآن ، كما قال : إن من مستلزمات الكفاح أن تتطهر البلاد من المبادئ الخلقية وأما كن اللهو الرخيص التي تثبط عن الجهاد ، وتجعل المجاهدين يتشككون في روح الجد في البلاد .

سوريا :

استيقت سوريا صباح ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٥١ على الانقلاب السوري الرابع الذي قام به العقيد أديب الشيشكلي وطوح بوزارة الأستاذ الدكتور معروف الدواليبي بعد ١٢ ساعة من صدور المراسيم بتأليفها ؛ إذ زحفت على دمشق فجر ذلك اليوم قوات اللواء الأول واحتلت المرافق العامة ودور الحكومة ، وأحاطت بالقصر الجمهوري ، واعتقلت أعضاء الوزارة الجديدة قبل أن يذهبوا إلى مكاتبهم ، كما اعتقل كبار نواب حزب الشعب وفشت مكاتبه ووضعت تحت حراسة الجيش ، كما منع الاتصال الخارجي مع سوريا . وبعد ٤ أيام استقال رئيس الجمهورية نخامة السيد هاشم الأتاسي واستقالت الحكومة من داخل سجن المزة وحل مجلس النواب ، ثم عهد العقيد الشيشكلي إلى العقيد فوزي سلو برئاسة الجمهورية والوزارة ووزارة الحرب وحوله جماعة من الأخصائيين يباشر كل واحد منهم مهام وزارة من الوزارات .

مراجعة * * *

هذا ما نقلته إلينا الأخبار عن سوريا العزيزة ، ولا شك أن عدم الاستقرار الذي اتسمت به الأحوال في سوريا خلال السنوات الثلاث الأخيرة مدعاة إلى الأسف الشديد ، فإن الصورة السريعة التي تحملها مثل هذه الأخبار عن سوريا إلى العالم الخارجي تظلم سوريا ظلماً مبيتاً فسوريا في تقدير كل من عرفها أصدق الأقطار العربية عروبة ، وأسلمها خلقاً ، وأوفاهها لقضايا العرب جميعاً ، وما الذي تعانيه من فورات إلا مظهر لعلطفة حارة تجيش بها صدور السوريين الأعزاء الذين لم يستقروا على جنب منذ مأساة فلسطين بعد أن أدوا واجبهم في معركتها الأليمة خير أداء ، ولقد رأينا بأعيننا شبابهم يتنافسون على الموت الكريم في خط النار ، والذي نرجوه لسوريا أن تنهأ لها أسباب الاستقرار وتجد من أبنائها المجموعة المؤمنة الثابتة التي تصرف هذه الطاقة الفوارة من العاطفة إلى النافع المفيد ، وأن يحفظها من كل شر يراد بها من قريب أو بعيد .

ليبيا :

توَّج الأمير إدريس السنوسي ملكاً على ليبيا صباح الاثنين ١٢/٢٤ ، وهكذا تولد دولة عربية جديدة في شمال إفريقيا تتألف من ولايات برقة وطرابلس وفزان . وليبيا هي عبارة عن المساحة الواسعة التي تبتدى من حدود مصر الغربية وتنتهي عند الحدود التونسية والجزائرية والتي تحد جنوباً بأملاك فرنسا والصحراء الكبرى ، وهي بلاد يسكنها العرب ويدين أهلها الأصليون جميعاً

بدين الإسلام منذ أكثر من عشرة قرون . وقد ظلت دائماً بلاداً واحدة لم ينفصل بعضها عن بعض إلا فترات قصيرة ، ولم يتغلب عليها الأجانب إلا فترات قصيرة أيضاً ، لذلك استمرت أثناءها تناضل حتى استردت وحدتها .

وهذه الوحدة ليست ضرورية من الناحية الإدارية فحسب ، بل هي ضرورة اقتصادية واجتماعية لاسبيل لتجاهلها ، إذ أن البلاد قليلة السكان ، مترامية الأطراف ، فقيرة في مجموعها ، تتعاون أجزاؤها لتكملة بعضها وتأمين حياتها ، بل كذلك تقتضى مصلحة الأمن والإدارة أن توحد الحكومة في هذه البلاد الشاسعة . وقد علمت هذه الحقيقة بالتجربة جميع الحكومات التي حكمت طرابلس حتى الأجنبية منها .

وأضحت هذه الرقعة الاستراتيجية الهامة على البحر الأبيض هدفاً استثمارياً مرموقاً ؛ فالتحتل لها إنمّا يهدد مصر وتونس ويسيطر على الممر المائي بين برقة وكريت ، ومطاراتها تعد مكاناً استراتيجياً هاماً تهدد قواعد الكتلة الشرقية بالقذف الاستراتيجي الجوي ، وتعد قاعدة عسكرية تبادلية لقاعدة قناة السويس ، فما أن فرضت معاهدة الصلح على إيطاليا في ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ وتنازلت بمقتضاها عن كل (حقوقها) في ليبيا حتى مزقتها إلى مناطق ثلاث ، هي : برقة ، وطرابلس ، وفزان .

ولعبت مصر والجامعة العربية دورها في هذه القضية حتى استطاعت أن تنتزع قراراً أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ ٢١ نوفمبر سنة ١٩٤٩ ، بأن ليبيا التي تشمل طرابلس وفزان وبرقة تكون دولة مستقلة ذات سيادة في تاريخ لا يتجاوز أول يناير سنة ١٩٥٢ ، وأن تقبل بمجرد تكوينها كدولة مستقلة عضواً في هيئة الأمم المتحدة طبقاً للمادة الرابعة من الميثاق .

ويقال إن مشكلة تعيين ولي عهد للملك الجديد في مدى شهر إلى جانب اتجاه جلالة إلى استبعاد أهله من السلطة التشريعية والتنفيذية حرصاً على مرضاة أهل طرابلس وفزان سيؤدي إلى إحداث هوة بين الملكة السنوسية والطريقة السنوسية، وهذا أمر نخشاه ونشفق منه ونرجو ألا يكون ، وأن يوفق جلالة الملك إدريس إلى تلافى أسبابه حتى لا يجد الأعداء الكثيرون ثغرة ينفذون منها إلى الأوضاع في ليبيا . وعهدنا بالسنوسيين منذ أيام سيدي الشريف أحمد رضى الله عنه وأرضاه أنهم على قلب رجل واحد .

وتواجه الملكة الجديدة مشا كل إدارية ومالية وسياسية متعددة ، نسأل الله أن يعينها على حلها ، وأن يقيها في ذلك شر المتربصين بها .

مراكش :

قررت الجمعية العمومية تأجيل درج قضية مراكش . وتعتبر القضية بالرغم من ذلك قد زحفت إلى المجال الدولي ، إلا أننا نرجو أن يستفيد إخواننا في مراكش من مصير قضايا الأخرى في هيئة الأمم ؛ فيصرفوا أهم جهودهم إلى الوسائل التي لا تتحطم بنيرانها الأغلال .

أخبار متفرقة

- نشرت لجنة الفتوى بالأزهر الشريف التي تمثل المذاهب الأربعة الشهيرة إفتاءها صباح الأربعاء ٣١ صفر سنة ١٣٧١ هـ والحاصل بالموقف الشرعي إزاء المستعمر الإنجليزي : « إن الدين الإسلامي يحرم التعاون مع الإنجليز في أية صورة من صورة سواء كان خاصاً بالمساعدات في مسائل التموين ، أو في القيام بأى عمل إنشائي فيه مصلحة ، أو تمسكين ، أو تبسير لهم في الإقامة بالأراضي المصرية ، ومن فعل شيئاً من ذلك بعد معرفته بالحكم الديني فهو خائن لدينه ووطنه ، وعقوبته القتل في المذاهب الإسلامية الراجحة » .
- يزداد سوء الحالة بين اللاجئين في غزة بسبب الأمطار الغزيرة والمواسف التي هبت عليها فهدمت بيوتهم المبنية من الطين ، واقتلعت الحيام العتيقة التي كان يسكنها عدد كبير منهم ، ففدا الجميع في حالة من البؤس تنذر بكارثة أليمة . إن كل واحد من هؤلاء لعنة إلهية متحركة حتى يجد طعامه ولباسه ومأواه .
- زار مصر في هذا الشهر السيد عيسى يوسف آل بكي سكرتير حكومة التركستان الشرقية سابقاً ؛ وهي ذلك الجزء من العالم الإسلامي الذي سيطر عليه الشيوعيون الصينيون والذي يضم ثمانية ملايين مسلم .
والنفوذ الحقيقي في هذه الرقعة المغصوبة في يد القنصل الروسي ؛ فهو المسيطر على الحكم هناك إذ أن قوات روسية تحتل البلاد بجانب القوات الصينية الغازية ، وهم يتخذون تركستان الآن نقطة ارتكاز لتنفيذ خططهم المقبلة .
- نفي جلوب باشا في حديث خاص مع مندوب الوكالة الفرنسية كل ما أشيع حول إقالته ، أو إحالته إلى المعاش ، وذكر أنه سيواصل النهوض بمهام عمله في شرق الأردن .
- احتجت اليمن لدى بريطانيا على أعمالها التي تقوم بها بالقرب من حدود اليمن ببناء منشآت عسكرية عديدة ، والاستيلاء على مساحات من أراضي اليمن .
- تحاول إسرائيل الآن أن تجعل منها ومن تركيا كتلة غير عربية تنضم إلى قيادة الشرق الأوسط منفصلة عن كتلة الدول العربية التي رفضت الانضمام إلى هذه القيادة .
- طلب جلالة الملك طلال من حكومته أن تبرق إلى الملقى باشا في باريس أن يقف مع الحكومات العربية في رفض الانضمام إلى حلف البحر الأبيض المتوسط .